هاملت لا تشرب السّم

موسى إزحيمان و مي كالوتي

هاملت لا تشرب السم
(يوميات مدينة محتلة)
موسى ازحيمان/ مي كالوتي

تحرير: نجوان درويش

الطبعة الأولى 2011

فوتوغرافيا الغلاف وتصميم الكتاب: رُوان أبو رحمة

© دار الفيل

القدس 91001 ص.ب 89

عمّان- ص.ب 3285 رمز بريدي 11821

www.feelpublications.com

ورشة القدس للكتابة

فعاليات "ورشة القدس للكتابة" للعام 2010 تمت بشراكة ورعاية مشروع "الشباب والحياة الثقافية في القدس" الخاص بـ"مؤسسة الرؤيا الفلسطينية" www.palvision.ps والمدعوم من الاتحاد الأوروبي. يعمل مشروع "الشباب والحياة الثقافية في القدس" على إشراك الشباب في الحياة الثقافية لمدينة القدس المحتلة من خلال فنون الأداء والمسرح والكتابة الإبداعية والفن التشكيلي، إدراكاً للقيمة التحررية والتنموية للثقافة.

هاملت لا تشرب السّم

(يوميات مدينة محتلة)

موسى إزحيمان و مي كالوتي

كانت 2010 من أقسى السنين على القدس وعلينا، أصبحنا نحسّ الاستيطان كما يحسّ المريض السرطان في صدره.
"ورشة القدس للكتابة" هي ضمن أشياء قليلة كان بإمكانها أن تمنحني شيئاً من الإيمان أن هذا الكابوس سينتهي وأننا سنعيش لنروي من بعده. لم يكن الأمر مجرّد مُحترَف لتعليم الكتابة الإبداعية.
ولعل "طلابي"- وأصدقائي على مدى فصلين قلِقين- من "حنين" أصغرهم سناً، التي تأتي أحياناً بمريول مدرسة "شْمِيت" ومعها ابتسامة سرعان ما تتحول إلى ضحكة خجولة.. إلى "موسى" أكبر "الطلاب" الذي كأنما هو طالع من مسرحية لزياد الرحباني، لعلّهم لا يعرفون مقدار الأمل الذي كنت أراه في كلّ واحد منهم.
والآن وأنا أراجع هذا الكتاب الأول لـ موسى ازحيمان ومي كالوتي، الذي كتبا نصوصه أثناء "الورشة"؛ تتبدد شكوكي بأن الرهان على الإنسان والرهان على الموهبة والرهان على مقاومة ثقافية هي رهانات يائسة.

لم ينته الكابوس بعد، لكننا سنلتقي لنواصل "ورشة القدس" من بعده.

نجوان درويش

موسى إزحيمان

ملاحظة للقراء الكبار

قد تكون اللغة ما بيننا صعبة، أعني لغة الحوار والتواصل، لكن هذا لا يمنع من المحاولة.

أحيانا نحن لا نهتم باللغة بقدر ما نهتم بالفكرة، وما تلك المحسّنات والسجع إلا وجع رأس لنا نحن الصغار، وأما المصطلحات الرنانة والطنانة، فما هي إلا أدوات تجميل لأحاسيس قبيحة.

نحن نحب البساطة والبطاطا -خصوصاً المقلية.

نحن لا نطيل في الشرح ونحب الحذق إللي بيفهم.

عزلته هذه لم تكن رغما عن أنف أهله فحسب، إنما عن سابق إصرار وترصد أيضا، يقبع صاحبنا الراوي في غرفة مستطيلة الشكل، طلاؤها لم يكن حديثاً، إنما لونها مائلٌ لزرقة السماء، خالية من كل شيء باستثناء العدم وبعض الجوارير التي أحضرها من ركام بيته العتيق، هاتف نقال صنع في عهد أخناتون، حذاء أصفر اللون، مرآة لا يرى المرء عبرها سوى بخار الماء.

توت.. توت، إس إم إس، يفتحها.

"المعلم السابع": حتى وإن كنت ميتا، عليك الحضور يوم السبت الساعة الثالثة مع ورقة طويلة أو قصيرة لا يهم. شكرا.
الراوي: اعتذاري يجب أن يقبل لسببين؛ أما الأول فهو العقاقير الطبية.
والثاني: كيف لي أن أكتب أي حدوتة دون شخوص، مكان وزمان؟ عفوا.
"المعلم السابع": يا أخي افتعل حواراً مع ذبابة، فقد سبق وأن وتحدثت مع الفئران والصراصير. أما العقار، اشربه بعد اللقاء! إلى لقاء...
لم يتبقَ لصديقنا رصيدٌ يمكنه من استكمال الحوار...
بعد أن ضرب رأسه بالحائط، ولاك شفته السفلى، ثم تمتم ببعض من الكلمات المتشابكة والمبهمة، ضحك محدثاً نفسه، يعتقد بأن الجنون قد مس فصيصات صندوق الذكريات، أو أني قد اقتربت من عبقرية صاحب "الذباب"! ويحكَ يا مصاص الدماء، لو أنك لم تكن ممن يقف لهم "شوقي"،

لاتصلت بالحمداني لأخلص منك وإلى الأبد.

يرمق الغرفة بنظرة ثاقبة كمن يبحث عن خلاصه، يجوبها طولا وعرضا، لا أثر لأي نوع من الحشرات أو حتى الفراشات، الأخيرة قتلها غاز الأعداء، والأولى لم تسلم من لصوص الثروات. ينال منه الإحباط والألم، حيث يدرك أن خلاصه الوحيد يكمن داخل جارور ما من هذه الجوارير، التي لطالما أشاح ببصره عنها كلما سقطت نظراته عليها.

يبتعد عنها فيقترب من شباك الغرفة، يهرع إلى "المهد"، يقفز عنه حين يتذكر أن فرشته ما هي إلا فرشة "عميناح"!

بأصابع مرتجفة يفتح عبوات العقاقير، يبتلعها كما تبتلع الحيتان صغار الأسماك، يركض يمينا وشمالا، يقفز، يصرخ هستيريا... تخونه الأقدام فيقع أرضا .

تطارده أضغاث الأحلام ، فها هو المعري يعانق صديقنا مثل عناق أم لوليدها بعيد المخاض، هامسا: أيا صديقي لا تحزن فإن رؤية لونين آخرين إضافة إلى الأحمر لا يعد سوء حظ، إنما أوفر حظا مما نلته أنا.

بجنون يدفع الراوي بحاضنه بعيداً، ويصرخ قائلا "لن أغفر فعلتك هذه، إن استحواذك على هذا الصندوق قد دمرني يا سيد المغفرة والغفران، أعلمتني أن "اثنان أهل الأرض: ذو عقلٍ بلا دين، وآخرٌ دَيّنٌ لا عقل له" ها أنا تائه بينهما! أين أقف أنا؟! يلزمني أن أعرف.

قف لا تهرب بعيداً، فأنت لست بصاحب "الرسالة"، قبعتك هذه أعرفها تمام المعرفة إنها..

الصوت: على رسلك، هدئ من روعك، فإن ثلوج سيبيريا جعلت الجريمة

عنوانا لتجربتي، فاجعل أنت من زمهرير "جنة الله" مفتاحا وحلا لمعضلة العقاب.

يصحو كمن يصحو لأول مرة، تائهاً وعطشان، أثناء بحثه عن الارتواء، يفتح جارورا، يخرِج بنطالا أزرق اللون، يتفحص الأماكن الممزقة فيه، بألم يتأمل إحداهن التي تقع فوق المفصل الأيسر، يذرف دمعة واحدة من عينه اليمنى، يقف أمام المرآة كي يروي لها حكايته التي طواها منذ ستة عشر عاما.

يا مرآتي، هذا كان لونه أزرق قبل التمزيق، في يوم الثامن من آذار من ذاك العام، عام البومة، أو عام الأول من نيسان، عام ٩٤، نلت جائزة السلام الاوسلوية، التي مزقت البنطال وما تحته وفوقه، فأذابت الثلج وصابونة رجلي، حينها أصابني شلل مؤقت، لم أكن اعلم أن تلك الصابون سوف تغسل جميع بقع معنى وجودي بعد ستة عشر عاما، ليتها شلتني إلى الأبد! هذه الحبة الصغيرة التي ابتلعتها للتو رممت جميع ما أتلفته الـ ١٣٢ هراوة، إلا أنها لم تمحُ آثار ما هو أخطر وأوجع.

يطويه ويضعه جانبا، يبحث عن باقي أجزاء الرواية، يخرج حذاءً أصفر اللون، إنه حذاء الكرّ والفرّ، لطالما ساعدني على الطيران أثناء الفرّ، إلا أنه خذلني في اليوم الثامن. (أثناء تفحصه للحذاء تصيبه حالة من الذعر، حيث ينتبه للمرة الأولى لماركة الحذاء)، يا مرآتي هل أنا أحمق؟ تهز المرآة، يا مرآتي هل تعرفين راشيل؟ يعم الصمت أرجاء الغرفة. يفتح الشباك ويرمي

الحذاء بقوة، حجراً من حجارة ٨٧، وإذ به يصيب مستوطنا فيسقط أرضا. يا مرآتي مزبوط إنه الـ بخلط السم لازم يذوقه؟ يا مرآتي ويا سادة يا كرام هذه الحكاية لم تنتهِ بعد...

يقف في منتصف الغرفة حائراً، يقرر فتح جارور آخر، يخرج مذياعاً مغبراً، كم من مرة سمعت عبرك "نحو تحرير الأرض والإنسان"، وها هي ٢٣ سنة تمر ولم يحرَّر إلا المحتل، يشعله بعصبية واستياء.

المذيع: "قام أحد المخربين بإلقاء جرّافة من نوع "كاتربيلير" فوق رأس مستوطن، مما أدى إلى وفاته على الفور. هذا وقد أعلنت شرطة العاصمة عن اعتقال المخرب، الذي أَقرّ واعترف بتنفيذ العملية، وأضاف مراسلنا أن تنظيمين معاديين قد تبنيا العملية أحدهما يميني والآخر يساري".

18 حزيران 2010

خارج التغطية

منذ أسابيع عدة، كنت وصديقي الغشاش نتبادل أطراف الحديث، أو قل طق حنك عبر المسنجر.

إحدى الطقّات كانت حول حادثة سرقة سيارة أم العيال، الـ "فيات اونو" التي اشترتها قبل الحادثة بشهر واحد، رغم أننا نعاني من شح جميع أنواع العملات المحلية والعالمية، إلا أن للضرورة أحكام، وضرورة هذا الحكم كانت لتخفيف وطأة وثقل جدار الفصل العنصري، الذي ضغط وبشدة على أعصابها وعظامها، حيث أن المؤسسة التي تعمل بها، تقع خلفه، ما بين القدس والضفة الغربية. لذا كان مرورها عبر بوابة الحرية، من بلاد "الديمقراطية" في القدس، إلى بلاد "الهمجية" في الضفة الغربية مرتين يومياً، أي بمعدل أربع إهانات يوميا. طبعا هذه المعلومات لم يعلم بها السارق، إنما علم بها الخالق، وهيك تمت السرقة.

كان يومنا أنا و"أم تولا" يوم سواد، هي أعلنت الحداد وذهبت إلى الفراش، أما أنا فأعلنت الإضراب، وهممت أصيح وأولول "يا عالم يا هو" عبر الياهو، فاعترفت لصديقي بأني لم أنزعج كثيراً لسرقة السيارة، لكن انزعاجي مصدره أن أقراص الموسيقى التي كانت تنام على أنغامها تولا، كانت في السيارة الملعونة. فسألني

صديقي بحس مرهف: هل توصل البوليس إلى معرفة السارق؟

لا أذكر إجابتي له، لكنه شعر باللامبالاة العفوية.

فقال: أستغرب عدم اكتراثك.

فأجبته: شكلك نسيان أنه بوليسنا هو نفسه من سرق أحلامنا وطفولتنا، ثم ملابسنا من ستين سنه!

صديقي الذي لم يرَ القدس حتى الآن: إيه والله راحت عن بالي هاي.

شوف يا صديقي، السنة الماضية تعرض بيتنا للسرقة، فلم يأبه البوليس حتى في رفع البصمات، وهاي مش جاي من فراغ طبعاً، حيث أن أحد زعمائهم سبق وأن قال: إن قام غير أولاد المختار بسرقة أو بقتل غير أبناء المختار، شو دخل المختار؟

أغلقنا الياهو وأشعلنا البانجو، وإذ بوحي يتسلل من موسيقى التانجو فيهمس في قناة الفالوب: اكتب.

فأجبته: لماذا؟

قال: اكتب.

قلت: لماذا؟

قال: اكتب يلعن بوزك، اكتب فإن أحداً لا يعلم بمأساتكم، وكيفية معاشكم تحت ظل احتلال وكلاء بريتش بيتروليوم، إن ما تنقله "المنار" أو جريدة الأخبار وغيرهما، ما هو إلا نقطة من أعماق بحار أوجاعكم اليومية. عشان هيك لازم تكتب. بس أنا كسول وما كتبت.

راحت الأيام، ومرّ شهران ولم اكتب هذه الأحداث رغم بساطة حبكتها، إلا أن حادثة الأسبوع الماضي صحصحتني من منامي، وأجبرتني على تقليم أقلامي، ليس بقصد فضح أفعال بني شلومو وبنعامي، أو حتى الفكر العلماني، إنما للتأريخ وتبيان قليل مما نعاني.

صانع العوزي يركب حماراً

ملعونة اسكتلندا وضواحيها ضاحية تلو الأخرى، محروق سما المملكة المتحدة كل مملكة بمملكتها، هيك وهيك لـ "جوني" وإخوانه الواقفين والماشين... هذا ما قد يطرطقه ويزعبره كل من شرب زجاجة ويسكي مغشوشة، وما حدا ممكن يتهم السكران المغدور بأي اتهامات عنصرية أو جندرية، ومن يفعل ذلك فما هو إلا تاجر مخدرات أو مبيّض أموال أو جراح تجميل أو عاهر يعلك الشرف مثل علك المومس لحبة أوربيت بطعم المانجا، أو موظف في مؤسسة غير حكومية. لهون وانتهت المقدمة.

من كام يوم تضبطني طفلتي الصغيرة وأنا في كامل الوعي، أبرطم وأطرطق للفرنساويين ومناخيرهم، حمدا للآلهة أنها سمعت كلمة واحدة فقط، والتي كانت حافزاً لفتح حوار من نوع سين جيم له بداية:

بابا بتعرف قديش وزن الفيل؟

آه بابا.

بابا بتعرف شو هو خرطوم الفيل؟

آه بابا.

بابا بتعرف ليش خرطوم الفيل بفتحة واحدة وإحنا منخارنا بفتحتين؟

لاء بابا، بتعرفي أنتِ؟

- عشان نعرف انمخط!

- طيب حبيبتي بتعرفي ليش الفرنساوين ما عندهم ولا فتحة بمناخيرهم؟
- آه بعرف بابا.
- بتعرفي!
- آه بابا عشان مناخيرهم بالسما.

وهيك انتهى حوارنا بانتصار المفعوصة، فما أن عدت إلى عزلتي للتجوال بين صحف وطننا العربي، مقالة تدور حول دور فرنسا الجديد في الشرق الأوسط الجديد، تجذبني. كاتب المقال يتعجب من فرنسا التي تمارس دور القوادة في الشرق الأوسط عبر نشر ثقافة الاستسلام والتطبيع. ما أثار اهتمامي تعجب الكاتب من هكذا ممارسات من قبل دولة علمانية تؤمن بالحرية ومقاومة الظلم والعدوان، فهل لم ينتبه صديقنا إلى الفرق الزمني ما بين فرنسا سارتر وفرنسا ساركوزي؟ لم يدرك كاتبنا أن التعجب والدهشة مرتبطان بشيء خارج نطاق المنطق والعقلانية. إن العجب أصبح سيد الموقف في جميع أنحاء شرقنا الجميل، كان حريا بكاتبنا التعجب لو أن فرنسا أصبحت صديقة للعرب بشكل خاص، وشعوب العالم من المضطهدين بشكل عام.

المدافعون بحماسة وشراسة عن هذا الدور من قبل الناطقين بلغة أصحاب لسان العرب، هو ما قد يثير الدهشة ويفتح جارور العجب، هؤلاء هم من يستحقون سلاطة ووضوح بودلير، كما كان واضحا في وصف فرنسا حين قال: "فرنسا تمر بمرحلة من السوقية. فباريس، مركز إشعاع الحماقة الكونية"، وأن "الفرنسي حيوان قن، مُدجَّنٌ إلى حد أنه لا يجرؤ على عبور أي حاجز. انظروا إلى ذوقه في الأدب والفن. إنه حيوانٌ من السلالة اللاتينية، لا تزعجه القذارة في بيته، وفي الأدب هو آكل بُراز. إنه مولعٌ بالغائط"'.

قصة تأتي بقصة، في أحد أيام لندن البيضاء، كان لي لقاء مع واحد أكاديميي عاصمة الضباب، أثناء الحوار شعرت أن مضيفي يتحدث بنوع من القرف والبغض حين يتعلق الموضوع بفرنسا، باغته بسؤال حول الكراهية التي يكنها الإنجليز للفرنسيين وطلبت منه تعريف العنصرية حسب قاموس أوكسفورد.

ببرود وابتسامة أجاب عن الشق الثاني من السؤال، وبلمح البصر انتقل للشق الأول قائلاً إن النورماندیين قبل شي ثلاثة ألف سنة تقريباً، استخدموا الانجليزي بديلاً عن الحمار فركبوه، وبصراحة لم أستطع نسيان ومغفرة هذه الصفاقة...

الآن أجد نفسي حائراً بين شاعر فرنسا وأكاديمي لندن، رغم الفروق الزمنية والهوية، وما بين شعرائنا الذين يدافعون عن موقف فرنسا كوسيط تطبيعي من الطراز الرفيع. متسائلا أقف أمام شعراء وأكاديميي عالمنا المشرقي: مفاعل ديمونا وعلاقة فرنسا؟ ألعوزي والساراكوزي؟ لعق حذاء الراكب وسلخ جلد المركوب؟

بعد أن غابت أسبوعا كاملا، أربعاً وعشرين ساعة وسبعاً من الأيام، يا إلهي كم تبدو الأيام متباعدة وطويلة أثناء الغياب! طوال هذا الأسبوع هواجسي تمحورت حول: ماذا سنفعل؟ ما هي الألعاب التي سوف نلعبها؟ "الغماية" أم "ستوب فركشت اللعبة"! كم من الأقلام نحتاج للرسم؟ كم من كيلوات "الملتينة" سوف نحتاج لبناء الأهرامات؟ أخيراً جاء فرج رب العالمين، عناق وقبلات، عناق مرة أخرى، قبلات.

وين كمبيوترك؟ تسأل تالا

"بالغرفة وبليز لا تلعبي فيه لأني عم احكي مع عمك اريدو"، تقبلني قبلة وكأنها وداع...

-حبيبتي عيب خليني أرد على عمك عم يسال عن..

-بس دقيقة بابا من شان الله

بعد مرور ساعة أنظر إلى العقارب فاكتشف أن طفلتي تحب ميكروسوفت وبيل أكثر مني! ينتابني الإحباط وتكمشني الغيرة، أقرر كسر الجليد:

-حبيبتي إذا ما بتطلّعي (تنظرين) في وجهي الآن، وبتعطيني شوية أهمية، ورب الكعبة لأسحب وصلة الكهرباء؟ (حنكة تعلمتها من أحد أطفال مخيم الدهيشة).

بنظرة قاتلة- ماذا تريد؟

-بابا أطلعي لي منيح، نافخاً عضلاتي، ألا تشبه عضلات "سبارتوكس" (بطل من مسلسل ليزي تاون) وها أنا اعمل ال "بوش أبس" بلا ايدين على

الإطلاق! انظري لشعري الأبيض لونه أجمل بكثير من لون شعر "ستيفاني" الزهري الفاقع، شوفي كيف بعرف شو في وراي من غير ما حدا يساعدني مِشْ مثل "دورا" بدها قرد ومليون طفل يساعدوها، شوفي كيف بقدر أكون شيطان اكتر من...

تقاطعني سائلة: بابا أنت أقوى من الوحش؟

- بكل ثقة أومئ بـ نعم.

- طيب.

- بس ليش سؤالك هذا؟

- لا بَسْ بدي أعرف.

بكل هدوء أعيد الوصلة إلى مكانها!

27 آذار 2010

اس إمّات

- كيفك حبيبتي؟ طمئنيني عنك وعن البنات هل أنتم على مقربة من رصاص الجنود؟ هل صوت القنابل عم يرعب البنات؟ أنا قلقان كثير، أرجو الرد في أقرب فرصة، شكرا.

يمر يومين ولا يأتي الرد!

- حبيبتي كل سنة وأنت سالمة عقبال الـ 120

ويا ريت تقول لي شو بتحبي هديتك تكون لهالسنة؟

تمر ثلاث أيام!

حبيبتي مش راح اقدر أمر ع المدرسة لأنه معبر قلنديا مسكّر(مغلق) وبسكّر، ممكن تمري تجيبي البنت؟

سبع أيام وتالا نايمة ع الرصيف!

- حبيبتي أنتِ طالق...

تمر ثلاث ثوان ويأتي الرد:

حبيبي أنا بخير والبنات بيسلموا عليك، تالا ما مرضت من نوم الأرض، وأنت سالم يا رب.

بدي كندرة رجالي نمرة 42 سودا.

ولّا خليها 48 ومش مشكلة اللون!

16 آذار 2010

هيلاهوب

مفعم بالأمل، أقفز بنشاط من على حافة السرير تماما كما يفعل "سبايدر مان" حين يهب لإنقاذ سيدة ذات مؤخرة سيليكونية ونهدين نوويين، أصنع فنجانا من القهوة، فأنا لا أحب قهوة أمي- لكن حنانها وطعامها، أتكئ على باب المنزل أرتشف أول رشفة ثم أُشعل سيجارة امبريالية محلية. ها هي عصافير الحارة تشاركني فرحة البقاء لا الوجود، والجارة أيضا تشاركنا عبر صوت تلفازها يطنطن ويخشخش من قاع الوادي، هي تعشق محطة المستقبل! تذوب عند رؤية سكسوكة الحريري وتتعطش للدماء فور سماعها جعجعات من لبنان.

كارمن: أما أصحاب برج الأسد، يومكم اليوم راح يكون غير شكل، لأنه زحل دخل عندكم وجايب الحظ الحلو في شنطة دبلوماسية، يومكم راح يكون هادي ومليء بالمغامرات...

أرشف قعر الفنجان رشفاً، أرمقه بنظرة وداع، ثم هيلاهوب أقذفه باتجاه الصوت.

بسرعة الضوء أعود إلى الفراش، أطفئ السيجارة تحت الوسادة وأنام مرتاح البال.

17 آذار 2010

لا تنسى فكرة الأعمال الفنية والقراءات ع المحسوم، جكر في ولاد البندورة. احكي مع عبير لتداول إمكانية فعل ذلك واسألها عن إنتاج المسرحية ؟ يعني وبعدين ضروري أروح للأجانب ولّا اشوف "المسرح الوطني"؟

ضروري تكتب مقالة "ديلكتيك المطبخ" أو الطناجر، لازم تحكي مع ستي إم خليل عشان تسألها عن الأكل والطبيخ أيام ما بعد 48
وخالتي فطوم عن 67

إرسال ايميل للشف سفيان عشان تسأله عن اسم كتاب الحلويات النابلسية اللي كتب في العصر العباسي أو قبل، الكتاب الـ سألت عنه في باريس وقالوا لي انه النسخة الوحيدة موجودة بالجامعة العبرية. وكمان بدي تعريف الطعم والطعام والطبخ، أي مقدمة كتابك يا أبو السوس. بدي أكتب شي اسمه "حرب المطابخ" والأفكار لسه مش مطبوخة، بدي مقدمة كتابك ضروري وبسرعة، لأننا عم نخسر الحرب يا صديقي.

19 آذار 2010

رُبّ أُم لم تلدها أُختك

عمة بنت خالة الـ خلّفوني الـ أجت من الأردن، لما أجت في ديسمبر، كانت أبرد منه، ما بقدر أوصفها هيك بسرعة في اليوميات، هاي بدها قعدة وطويلة ع الأرغيلة.

تصنّعها للبرجوازية والفوقية الشرقية حين قدمت لها صابرين فنجان القهوة، طبعا هذا المشهد الـ ربطته مع عيد الأم لما سألت والدتي عن إطار صورة سالي الجديد وكان الجواب :

هدية صابرين لي لهذا اليوم.

طبعا ما حدا غير البنات تذكرها بهاليوم أما نحن مجموعة ال جحوش فما بنحتفل غير في 22 أو 10 من هالشهر المبارك.

المشهد الضروري لدراما اليوم، أي تبع بنت عمة جوز ابوي بكتبه بكرة- لأني مشغول مع دكتور الأسنان وهلّأ وصل عند العصب، أخت الشوكلاتة والكنافة وكل شي فيه سكر.

21 آذار 2010

جلجامش في إيلياء

ماذا أقول لك عنهم؟

هل أخبرك أن المغول الجدد أصابوني بالغثيان لحظة نبشهم لقبور أنكيدو والسياب،

كي تكون عظامهم وقوداً لـ "افّات ستعشرهم"(F16s) التي سوف تغزو العالم شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً.

أو علني أخبرك عن خطتهم لامتلاك رأس المملوك جابر، اعتقاداً أنه رأس نوويٌ، ثم تقطيع شرايين سعد الله، لتكون جنازيراً لدبابات المركافا.

سوف لن أحدثك عزيزتي، لأن جلجامش يقبع في إيلياء، مكبل اليدين، لا يملك قوة حتى للبكاء.

هو يحلم منذ 82، في زيارة قصيرة، يجلس تحت أرزة، ليرسم لوحة، أي لوحة، شرط أن تخلو من اللون الأحمر، وجميع الألوان القريبة منه.

5 تعريفات

الليل: قاموس وجودنا. يحمل كل تناقض المعاني. نامي نامي يا صغيرة، تغني ليلاً. البحر يحدثنا عن أسراره ليلاً. قيس جن في هوى ليلى ليلاً. تقرع الكؤوس ليلاً. ري النبات أول الليل. أحلامنا تزورنا ليلاً. السارقون يعملون ليلاً. الخطط العسكرية تنفذ ليلاً. الأخبار غير السارة تأتي ليلاً. احتلال حيفا كان ليلاً. الصراصير تصرصر ليلا، فتنزع أحلامنا الليلية والنهارية. الاحتفال بانتصارات قادة القوادة تفرقَع لها المفرقعات ليلاً. أخيراً، صلاة الليل تصلّى ليلاً.

التضحية: شر لابد منه، سمة ونهج إنساني غريب، لا يملكها إلا من كُرّم وجهه.

الوفاء : كلب الجيرمان شبيرد، الصورة الوحيدة التي أراها عند سماع هذه الكلمة.

النّت: مثل المخدرات الثقيلة التي تستخدمها حبّاً بالمعرفة والفضول، وتنتهي أنت وإياها في قبر واحد.

الجنس= 2 نق تربيع.

نخب أخير

حبكة حدوتة اليوم، حاكتها أحداث قصة الأمس، أو إمبارح باللهجة المقدسية عشان ما يصير في خلط بينها وبين إمبارح سومة، ماهي "قصة الأمس" أصبحت ملكا فنيا لكوكبة تل الربيع زهافا بن، مثل ما صارت إمبارح ملكاً كنعانياً بعد اقتباسها من الـ امبو الفرعونية .

إمبارح التقيت وشلة من الأصحاب أحدهم فنان، الآخر إعلامي، وثالثهم الشيطان "محامي". أما شخصي الكريم جداً، والمتواضع أحياناً، تاجر ابن تاجر بالوراثة. دخلنا المطعم برجلنا اليمين، فتلقفنا صاحب المكان بذراعين شراعيين (أحد ألاعيب التجار عشان يعطيك انطباع بالأمان) وثغر باسم إيحاء بالترحيب والحفاوة الماكرة (مصدر فرحه الحقيقي، هو وجودي والشيطان برفقة الثنائي الطفران، فهذا صك وضمان دفع فاتورة السهرة).
بعد الاختلاف والتشابك بالألسن حول شكل وموقع الطاولة، جلسنا عل الأرض بأدب ووقار، طلب صديقنا الفنان من صاحب الحانة حصيرة تتسع لأربعة، بابتسامة من نوع آخر أجاب: على راسي. تدخل المحامي قائلا: لاء عل أرض لو سمحت. كأي تاجر قنّاص فرص: إذاً البساط أحمدي بهالشكل ممكن تجعلها سجادة أعجمية، ومش إيرانية الله يخليك. ما هي إلا دقائق وإذ بالمنتَظر (ليس المسيح إنما تعريبي الخاص للـ ويتر النادل): جاهزين تطلبوا حضراتكم؟
كأي صحفي محلّي وعالمي، طلب صاحبنا كاساً من الجن، وهيك فيكم

تعرفوا مين بيساعده في جمع الأخبار. أما الشيطان، فأمر بكاس من التكيلا، وهذا المشروب الساحر بيسرقك وأفكارك من دون ما تحس، يعني مثل نشالين الواد، وله سمة أخرى، وهي قلب الأشياء فوقاني تحتاني، حتى الألوان لا تسلم منه، فالأصفر يتحول إلى أخضر، والأخضر إلى أزرق، والأبيض أسود، وجميع ما سبق هي ميزات أي محامي شاطر. أما فناننا، بخجل طلب كاس ممارسة الحب ع الشط، أو كاس العيب أو كاس الحرام (طريق التفافي على الرقيب) وهكذا كاس ما أن تشف أول شفه منه، حتى يحولك من إنسان غير طبيعي إلى ملاك يلبس بنطال، ومن هون بتعرف قديش صاحبنا مسكين، وكما تقول والدتي: امسخّم .

تاجرنا المر، طلبه كان غريب شوي، قنينة مياه معدنية وصحن من الملح وعلبة كاملة من ورق التمخيط (كلينيكس).

بنظرة من عدم الاكتفاء سأل المنتظر: الملح مع ليمون وفودكا! أجبت: بأمر من الطبيب، حُرّمت عليّ جميع أنواع المشروبات الفسقية، أما الماء والملح فما هما إلا أحد أهم أنواع العلاج لهذا الاحتقان الذي أكابد (احتقان الجيوب الأنفية).

المنتظر: راح تشربهم؟

التاجر: لا أبداً، راح أستنشقهم عبر المنخار، عشان هيك طلبت الورق.

المنتظر: راح تعمل هالعملة المقززة هون على الطاولة؟

التاجر: لاء ... عل أرض.

المنتظر: يا زلمة رواد المحل كلهم أجانب، هيك راح تفضحنا.

التاجر: دخيل عرضك، وقفت على هاي؟

المنتظر: أولتك.

المحامي: شوف يا صاحبي، بدي أدخل عل الموضوع دوز دغري.

التاجر: مش عادتك.

الفنان: بصراحة وحب كمان.

الصحفي: وشفافية.

حضرتي: صار لي ساعة عم أضرب أخماس بـ أسداس وعم أقول شو لملم الثلاثي في هيك ليلية؟ يبدو سوادها قادم، شكله في مؤامرة تحاك، وأنا مثل الأطرم .

المحامي: وين الدليل؟؟

التاجر: أنت.

المحامي: البينة على من ادعى .

التاجر: الفن والإعلام هم أصول من أصل الثقافة، والثقافة فرع من أصول أصل السياسة والاقتصاد، إذاً بناءً على ما تقدم، فإن طلب الاجتماع بتاجر، أي صاحب رأسمال، أو برجوازي أمعفن ..

الصحفي مقاطعا: برجوازية وطنية.

التاجر: كيف يعني؟ هاي ما ركبت معي، إلا تلمس التناقض ما بين الكلمتين! بحكم عملي، فإن راس أولوياتي هي تفريغ جيوب المواطن وهرسه ثم نهش عظمه... ببساطة أنا الضد. على كل حال هذه المعضلة ممكن نناقش فيما بعد، شو كنت عم أحكي قبل المقاطعة؟

الفنان: الأصول، الثقافة السياسية، وسياسة المثقف، لقاء الأضداد على حصيره وكاس من المحبة.

التاجر: يعني في شي عم تطبخوا سوا، بس ريحة المؤامرة انحرقت. مين بده

يعترف؟

الفنان: نظرية المؤامرة سقطت من زمان، كل شي عم يصير من فوق الحصيرة هالأيام، وعبرها...

الصحفي: شوف يا صاحبي، بصراحة، المجلة التي أعمل بها تبحث عن كاتب من نوع جديد، كاتب ملتصق بالشارع، وأنا شايفك هيك...أنت تملك كل ما تحتاجة الصنعة: المصداقية، النقد البناء، عيون كبار والأهم لسان طويل.

التاجر: مبدئياً الفكرة مرفوضة، بس زي ما بتعرف فإن التاجر دائماً وأبداً بياخذ أولا وبياخذ ثانياً وثالثاً، ثم يعطي رابعاً أو ريفرس...فـ هات ناخد ونعطي بالحكي. إنو طبيعة عملي ملتصقة بالشارع، مش معناه إني بعرف شو وكيف بيفكروا الناس، إن أطول حوار والزبون المحترم، هو حول السعر، وعادة ما تنتهي هذه المفاوضات بعد ثواني بجملة واحدة: "يفتح الله". أما المصداقية، فإنتوا أصحابي وعارفيني.

الفنان: بتحلف ب الله بأداء تمثيلي أروع من عمرو رغم إنك ملحد، وفشار أكثر من النجار، بس للأمانة مش بهلول مثله.

التاجر: وين كنا؟

الفنان: كنا سبعة ع النبعة وأجا أخو لـ... وصرنا شيفع (للتو دخل مدير أحد المسارح المحلية بصحبة فنانين وفنانات شقراوات).

الصحفي: ليلة سودا، مش هادا هو سبب عقدك النفسية يا ...

التاجر: معه كل الحق يتعقد، يعني لو هذا كان مديري لكنت جالس مع الصديقين هلاء أشرب شاي ويانسون. لك يا رجل في بني آدم عنده مخ يغلق مسرح الدولة في وجه الجمهور ليمنع عرض مسرحي علشان كم قرش؟

المحامي: له كامل الحق في تصرفه. إذا بدكم الصراحة والنظرة القانونية.
التاجر: تضرب أنت وهيك قانون، عفوا من أي كرخانة متخرج حضرتك؟
(دب نوع من الفوضى والفلتان الأمني فلملمه صديقنا الصحفي).

النخب الثاني

التاجر: الزبون عنا هو الجمهور عندكم، الفنان عندكم هو الموظف عنّا، ومدير عام المسرح في وكالتكم هو الجنيرال مانيجر عنّا، مش هيك؟
الصحفي: ما فارق التشبيه.
التاجر: هذا نوع من النرجسية والفوقية التحتانية. ما علينا خلينا بصلب النزاع.
الصحفي: اعتذر.
التاجر: في التجارة، هناك قوانين وضوابط ملزمة، يلتزم بها التجار على كافة أشكالهم وأحجامهم.
المحامي: قوانين شوارع هاهاه.
التاجر: بس أشرف من قوانين محاكمك... شوف يا أستاذ:
أول قانون: احترام الزبون هو فرض عين (فهو على حق دائماً)
الثاني: الالتزام بمواعيد فتح وإغلاق السوق.
الثالث: وأد أي خلاف قد ينشب ما بين صاحب المصلحة والشغيلة (الطوشة والغوشة بعد ساعات الدوام الرسمي) باختصار ممنوع إقحام الزبون في هيك متاهات.

الفنان: عاش قانون الشارع..... بصحة النصاب.

الصحفي: خلينا نرجع لصلب موضوعنا، شو قلت؟ بتحب أحكي مع رئيس التحرير؟

التاجر: بتفكر إنه عشان عيوني كبار ممكن كتابتي تكون أبين من بيان الجاحظ؟؟

الصحفي: وليش لاء.... كل شي ممكن وربك كبير.

التاجر: بقى مشكلة النقد، بصراحة أنا ما بتحمل حدا ينتقدني، وإذا في شي حدا عنده بيضات وعملها بلعن سنسفيل شروش أهله....وفاقد الشيء لا يعطيه.

الصحفي: ميكافيلي بيعطيك هالحق، وأصلا المرحلة بدها هيك.

التاجر: أصبح صار لازم تجاوب على أهم سؤال عندي، كم ورقة من ورقات "نؤمن بالله" بتدفعوا على المقالة؟

الصحفي: بعدد أسطرها، وعلى السطر (همس الرقم في أذني).

صمت....(هو صوت ماكنة الحساب في راسي).

كم سطر لازم أكتب كل يوم عشان أربح أكثر من ربح بيع حبات الفياغرا؟!

التاجر: موافق بس بشرط واحد.

المحامي: أنت أشرط، وإحنا بندرس شروطك قانونيا.

التاجر: شرطي الوحيد هو أن يكون الـ "فونت" بحجم ٢١.

المحامي: أوف... كتير هيك.

التاجر: بين البايع والشرّا والرزق على الله.

الصحفي: الفاتحة...بس ليش ٢١ تحديدا؟

التاجر: لأنه يقبل القسمة على ٧ وهذا رقم مبارك.

الصحفي: أصبح هاتوا له ٧ أب لتوقيع الاتفاق.

وقعنا وانصرفنا سوية، انطلقت سيارتنا باتجاه راس العامود. بالقرب من الجثمانية، يلمح صديقنا الصحفي بعض الأضواء والشخوص في المنطقة القابعة ما بين قبر سيدتنا العذراء وسور القدس (المكان الذي ألقى البابا منه خطبة الجمعة قبل شهرين)، بيشحط بريك فيتحول الصحفي إلى شومخر، بأدب يطلب منا مرافقته في جولة تحقيق في المكان. قلت هاي فرصة أتعلم منه أصول المهنة.

نزلنا.....

تمشينا، تجاذبنا أطراف الحديث. بدون سابق إنذار، تجهم وتفنجرت عيون صاحبي، حاولت فهم الأسباب، همس قائلا: هذا الصليب، إن لم تخن الذاكرة، هو شعار فرسان مالطا.

بسرّي قلت شو يعني، مالطل ولّا يالطا، كله أخرا من بعضه ...

نال مني التعب فقررت الرحيل على الأقدام لقرب بيتي من المكان. بحذر ولصوصية أدخل الفراش كي لا أزعج ملائكتي الصغار، ما هي إلا لحيظات..

فرسان بملابس عسكرية تطاردني، أتعثر بصخرة أعرفها تمام المعرفة، صليب معقوف يطرق راسي، إنه قلب الأسد معتمراً قبعة بيس بول، حاملاً رشاشاً هنغاري الصنع، أزحف مذعوراً، أسقط في حفرة دائرية، أرى نفسي واقفاً على ركح وسط الصحراء، أسمع صوت تصفيق الجماهير وصراخهم: هاملت لا تشرب السم، اكرعه كرعاً، انحني تحية لهم، تتلاشى الأصوات باستثناء ثلاثة مشاهدين في الصف الأول، يا هولي إنه مسرح يثرب الوطني فهذا الفاروق عمر مبتهجاً، وذاك العباس رضوان الله عليه ينسخ أشعاري،

تتوسطهما سيدة الكون عائشة، تلوح لي بسيف ذي نصلين.
أرتعب، أتعرق، تنقذني الستائر الحريرية.. هون بحط الأول، وبَلَبِّس الرابع، أنظر للعداد، لا أصدق عيوني، سرعتي فاقت سرعة البصر والبصيرة، أرتطم بحائط زجاجي، أفتح باب السيارة، أركل اليافطة التي علقت بالباب "ملهى وبار الجنة الآن"، النادل يرفع إصبعه مشيراً إليّ بالترحيب، يا ويلي إنه الاسخريوطي، أتظاهر بالعمى، أمشي باتجاه البار، أطلب كأساً من الماء وبعضاً من الثلج. "من أنت؟" يسألني البارتندر. أتلعثم بحثاً عن إجابة... أنا أنا هاملت.
أهلن رفيق. مين حضرتك. أنا عوْ عوْ عوطيل، تردده هذا جعلني أتفحص بشرته، إنه أشقر، لك شو هالمصيبة؟ شو جابني لهون؟ أبحث عن مخرج لهذه المأساة، أرى إشارة خضراء كتب عليها "كازينو الأبدية"، مترنحاً أكزدر باتجاه الشارة لعشقي البوكر وجميع ألعاب القِمار. أجلس حول طاولة التشيكت، وما إن لاصقت طيزي لذاك الكرسي، وإذ بصوت جاري قائلا: أهذا الإمعة بكليب؟ ارمي الفيش والورق، ويا جبل طيرك الريح. أشعر بماء بارد يتسلل لجسدي النحيل المنهك، شهيق زفير، أجمع خلايا دماغي، أشحن حواسي، أكتشف طاولة فارغة من اللّعيبة.
إنها طاولة النرد، لا أحب النرد، فهي لعبة تعتمد على الحظ فقط، إلا أنها الطريق الوحيد أمامي، علّني أستريح قليلاً.
أطلب النرد من صاحب الطاولة بأدب وصوت هزيل وبالعامية "حبيبي هذه الطاولة بس للشعراء يالا زوز" .
زوزو زوزو زوزو اصحى حبيبي عندك شغل، هلاء الساعة صارت سبعة ... يالا حبيبتي بس تعبت من أحلام الليلة كتير.
حتى الأحلام بتعبك؟ يخرب بيتك شو امشكشك.

يخرب بيت الصحافة وصاحبي، شو ليش شاعلة بخور ع الصبح ..خير!
مش أنا، هذا بخور المصلّين في ساحة البابا، جيرانا الجدد.
أصبح في مؤامرة ...
يا زلمة بكفيك شك بكل شي
يا عيوني أنتِ مثلا متى تشعلين البخور؟
لما بكون حارقة طبخة، أو ناسية البامبرز تحت السرير.
يعني غطاء مؤامرتك هو البخور.... أفحمتك مو هيك؟

أغادر المنزل، ألقي تحية الصباح على أبو أحمد جارنا.
أبو أحمد: بونجور.
من طول عمره أبو أحمد كل ما أقول له صباح الخير، بيرد علي بـ "وعليكم السلام".

هيو صار يحكي لغات، وبتقللي المؤامرة براسك بس....
أهرول باتجاه المصلين الجدد، بفرنسية مطبشة أحاول جمع معلومات صحفية حولهم،
هل أنتم من مالطا؟
تأتي الإجابة بالنفي.
أطلب شم كفيه فلا يرفض.
أدسّ أنفي بين أصابعه وأشفط نفساً فشر كل "نوركمانية" العالم يشموها، أشعر بطعم مالح في الجيب اليسرى.
وأشعر برائحة موت باليمنى، أهذه آثار ملح الأرض؟ أم أنها رائحة دماء انكيدو؟

مي كالوتي

شارع تهامي باشا

لست ممن يحضّرون ملابسهم من الليلة الماضية، أفتح الخزانة صباحاً، وأُخرج منها ما اتفق من ملابس وألبسها. هكذا فعلت يوم سبت من آذار، سحبت السروال الأخضر وبلوزة مقلمة باللون نفسه مع أبيض. كنت متأكدة أن عملي اليوم مكتبيّ، لن أضطرّ للخروج، كما أن والدي سيصحبني من البيت إلى المكتب وبالعكس في السيارة. أحب الألوان في مجتمع لا يعترف إلّا بالأبيض والأسود، فألقى تعليقات لا تنتهي إذا ما لبست شيئاً خارج إطار اللونين المتعارف عليهما – وهما ليسا لونين على كل حال.

كان شعري مفروداً كذلك، هذا حرصت على تمشيطه منذ الليلة الماضية، إذ أن القصة الفرنسية الأخيرة استلزمت تصفيفه باستمرار حتى لا أبدو آخر النهار بشعري المجعّد كالخروف – مع احترامي للحيوان الأليف.

وصلت المكتب باكراً بما أن أبي أقلني إليه، وجلست على مكتب محمد بما أنه في عطلة ليومين، إذ لا أملك مكتباً خاصاً حتى اليوم في خربة أبو الزلف، التي تضطر فيها لـ"الشحاتة" حتى تحصل على ما تريد، ولم تسمح كرامتي لي بأن "أشحت" مكتباً حتى الآن، اكتفيت بوعود د.مروان الذي يرقد في المستشفى منذ مطلع السنة.

رنّ الهاتف فرفعته وكأنني ملكة المكان –وليتني لم أكن. مهمة لتغطية خارجية! معرض للفنون والمخطوطات في العيزرية. آه! كعب الحذاء سيسبب لي مشكلة في المسير، ناهيك عمّا ألبس اليوم.

مشيت عبر شارع صلاح الدين النتن في يوم سبت، يملؤه صبية شارع يافا أو "بن يهودا". هناك يعملون في الكناسة والجلي ومسح "أطيـ." اليهود، لا يرفعون رؤوسهم إلا ليهزوها لأوامر شلومو المخصيّ بإنهاء العمل بأسرع قدر ممكن وبجهد أكبر. هنا يعملون عمل "تهامي باشا" ممثل "ميلودي دراما" القذر الشره الطماع، صاحب الشهوة والأموال، يزبدون بألسنتهم بكلامٍ وسخ، هنا أيضاً يبقون رؤوسهم منخفضةً على مستوى أرداف الفتيات، ولا يرفعونها إلا لرؤية "ما جاد الله به في العُلا"!

وصلت محطة الباصات بجهد بعد أن التصق بي كلام قذر، جهدت بمسحه بثقتي بنفسي، وفكرة حريتي في اللباس. سألت سائق الباص ما إذا كان يعرف المكان الذي أقصده، نظر إليّ من الأعلى للأسفل وهزّ رأسه بالإيجاب "سأدلّك عليه ما أن نصل".

كانت المحطّة الأخيرة، أشّر لي بيده إلى المكان الذي أردته. نزلت من الباص وتوجّهت إلى البوابة "أرجوك، أبحث عن مكان المعرض الذي يقام هنا". نظر الحارس إليّ بطرف عينه "اسألي في الداخل، أنا لا أعرف".

مشيت الطريق صعوداً، دخلت مبنىً فرغ من الداخل من أيّ عنصر بشريّ، كان الطقس صحواً فخرج الجميع تحت شمس يوم ربيعيّ، وشعرت بالنظرات تلحقني أينما ذهبت، هذه المرة كانت نظرات أنثوية، فيما سألت عن مكان المعرض بضع فتيات تجرأن فاقتربن مني حتى يعرفن ما أريده، إذ بدوت دون شكّ غريبة في المكان، كنّ جميعاً يلبسن غطاء الرأس والبرقع والجلباب.

اتجهت حسب إرشادهنّ إلى مكان المعرض، مررت بطريقي بشبابيك الكفتيريا، كلهم هناك شباب، توجّهت نظراتهم الغاضبة إليّ، ولم أفهم

سبب غضبهم بداية الأمر، اكتفيت بإنزال نظري إلى الأرض والخطو سريعاً للوصول إلى هدفي.

"مرحبا، أنا مراسلة الجريدة التي اتصلتم بها هذا الصباح". تغيّرت سحنة السيدة التي اتصلت بي مئة وثمانين درجة، حتى أن يدها التي امتدّت لتصافحني صغرت وتقوّست وترددت قبل أن تمسك بيدي، تراخت عضلات وجهها، وأحسست بها تشيخ سريعاً وأنا أمامها غير فاهمة لم يحصل كل ذلك.

دخلت المكان الذي عبق برائحة البخور، فعرفت السبب؛ التفتت إلي وجوه كستها اللحى المنطلقة، وتتبعتني عيون من خلف الخُمُر السوداء، وتمتمت أصوات لم أتبيّن مصدرها، كنت "الفاجرة" في الجوّ الإسلامي القحّ ذاك.

حاولت أن أكون مهنية قدر الإمكان، أجريت بعض المقابلات السريعة، وأخذت بعض الصور، وجلت في معرض المخطوطات الإسلامية وصحف القرآن التي أكل الدود ورقها، فيما بقي الكلام كما هو ب"إعجاز ربّاني" حسب شرح استمعت إليه.

كنت أدور في حلقة مفرغة، أسير فيبتعد عني الموجودون، أصبحت كمغناطيس معاكس، تقربه من الشيء فيبتعد سريعاً. أعجبتني اللعبة، وصرت بثقة أسير في المكان دون قصد معيّن، وأتخيّل نفسي من المسقط العلويّ: أنا ودائرة فارغة حولي كالسوار والناس تدور في فلكي دون الاقتراب مني، كان مشهداً تلذّذت به.

بعد الانتهاء من عملي، انضممت للحاضرين لأكل المحلّيات وشرب العصير، لم أشعر بالخجل أو الارتباك بعد ذلك، تملّكني شيطان وجد ضالته بين من يسعون دائماً إلى طرده من حياتهم، وجدّته متعلقاً بي كقشّة نجاته من بحر

"الظلمات" ذاك، لعبنا معاً في الاقتراب من الشيوخ وهربهم هم إلى أقصى مكان في الغرفة، وضحكت في داخلي وأنا أغيظهم برائحة دافيدوف التي أغرقت نفسي بها صباحاً.

خرجت بعد أن جمعت ما يمكن جمعه من معلومات لكتابة خبر، مشيت في الساحة الخارجية بثقة بعد أن وضعت نظارات الشمس وسرّحت شعري بأظافري التي ملأها الطلاء الأحمر، وتبخترت وعلى كتفي شيطان رأيه يمدّ لسانه لأحد خلفي.

شعرت بخطوات مترددة، ونحنحة خفيفة، أبطأت من سيري وتوقفت فجأة في مكانٍ خالٍ من الناس. استدرت نصف دورة، فإذا بي وجهاً لوجه مع شابٍّ ملتحٍ في الثلاثين تقريباً، جفل فابتعد خطوتين إلى الخلف، والتفّ بجذعه إلى اليسار قليلاً، ووضع كفّيه على أسفل صدره كمن يستعدّ للصلاة، وطأطأ رأسه للأسفل وتمتم وهو يناولني بطاقة "هذا عنواني الإلكتروني، آمل أن نتعرّف على بعضنا أكثر".

31 أيار 2010

جدتي تنسى بشكل مرضيّ، وتنمحي عندها أشرطة الحاضر بسرعة أكبر من سرعة سير شريطٍ في المسجّل، وتبقي نفسها حبيسة الماضي، فتسأل دون مقدمات عن ابنة عمتها التي كانت رفيقتها أيام الطفولة "كيف دعاء الأسمر؟"، فتلطمها زوجة عمّي بالجواب بكل بساطة "يوه! ماتت من سنتين!"، فتراها تطوي رأسها على صدرها، يعلوه حزن شديد، وكأن التي سألت عنها ماتت للتو.

إن أكثر ما يبقي على ذاكرتها نشطةً -وحالها حال الجميع دون استثناء- هو النقود، فأتنكّد وأحسب أنني الليلة لن أنام، إذا ما وضعت نقودها في خزانتي، لأن "السيّد سكّري" يوقظها في الليلة أربع مرّات للحمّام، تقوم في كلّ مرّة منها تتفقّد الشواقل التي خبأتها في أحد الرفوف، وتعدّها مرتين إلى ثلاث كل استيقاظة، فلا يبقى من الليل إلا القليل لأنام فيه.

تزوجت جدتي دون أختين لها في سن السابعة عشر، وكاد قطار الزواج أن يفوتها لولا نزولها مرّة إلى اللحام مصطفى -الذي هو جدّي- في يومٍ لم يكن فيه من يشتري لوالدتها اللحم في المنزل غيرها، فرأى وجهها من خلف الحجاب الأسود، وسامحه الله، كانت تلك نهاية عزوبيته.

عاشت مدلّلة، أختها التي لم تتزوج أعانتها في تربية الأولاد، وحين سكنت في الطور قبل انتقالهم أخيراً إلى واد الجوز، كانت جاراتها البدويات في الخيام القريبة تساعدنها كثيراً -هي بنت المدينة- في أعمال البيت مقابل

قليل من المال.

هذا الدلال لم يتمكن من محوِ علامات السن، إذ أنها تجاوزت الثمانين، فترى خطوطاً كرسم طفل صغير متداريا عن أمه على حائط وجهها، وحنى ظهرها ثقلٌ خفيٌّ على كتفيها، وشوّه "الدوالي" ساقيها الثخينين فكأنك تنظر إلى خارطة، فتتوه في الشوارع الكثيرة المتفرّعة، كما زاد وزنها في السنين الأخيرة لقلّة تحركها، فثبّت على خصرها عجلاً من عجلات شاحنة "ماك".

*****

حين عدنا من السعودية لنستقرّ في القدس، لم أكن أتجاوز الثامنة من عمري، وكانت جدتي –والحق يقال- تدللني أكثر من غيري، إذ كنت رفيقتها في الغرفة والمشاوير والرِحل، وكنت أستمتع بها كلها عدى جولة السوق، فأرى نفسي جارية تحمل الأكياس وتركض وراءها من دكانٍ لآخر، كما أنني أمشي إلى "أم خالد" بائعة الخضار كل يوم ثلاث مرات أو أكثر، "زادت الحشوة، هاتي بتنجان.. زاد البتنجان، هاتي حشوة"، فأغدو كمكّوك في ماكينة الخياطة ما بين البقال والبيت و"أم خالد".

وعلى ذكر مكوك الخياطة، كنت أستمتع أشد استمتاع حين تحضر الأخيرة وتركنها على طاولة صغيرة أمامها وهي جالسةٌ على الأرض، وتفرد قطع القماش لتخيطها، وتطلب مني أن أدوّر العجلة اليدوية، فأركّز عينيّ على الإبرة الصاعدة والهابطة في نهر القماش الجاري، وتأمرني أن أقف عند المصبّ.

لكني أكره الربيع لأجلها، إذ لا يعكس دوماً سطوع الشمس في تلك الأيام من السنة جواً دافئاً، فقد يكون أشدّ برودة من يومٍ في كانون، لكنها

كانت تخرج كل ما في البيت لتشمّسه، وتفتح الشبابيك عن آخرها، وتزيل السجاد وتدعك الأرض بالصابون والكاز، فما أن أصل قاع التل الذي يجلس بيتنا عليه من المدرسة، وأرى من بعيد أعلام الاستسلام -البطانيات وجثث المخدات مفرودة في الخارج، حتى أعرف أن النهار لن ينتهي إلّا وأطرافنا منفصلة عن أجسادنا من شدة برودة البيت، وأبدأ موشّح البكاء و أنا أصعد الدرج الطويل إليه.

لكنني لن أنسى ما حييت صورة قسوتها المعلّقة على حائط وجهها الأبيض، يومَ اشتدّ فيه الجدال بينها وبين والدي الذي كان غارقاً بالحمّى طوال النهار، وصحوت على صوت والدتي في الليلة نفسها تصيح ووالدي يركض في ممرات البيت ويرتمي على الأرض إذ ضاق نفسه فجأة، وبكيت وأخوتي الصغار ونحن نشاهده وعمّي يجري له تنفساً اصطناعياً، في حين وقفت جدتي من بعيد تقول باستهزاء "قووووم.. بلا كزب ونفاق، ستشتري لي ما طلبته منك، لا تمثّل، لن ينجح ذلك معي".

29 آذار 2010

***حتى أنت يا بائعة الفجل!**

حين عدنا لنستقرّ في القدس بداية التسعينات، كان من الضروري أن أجد مدرسة أنتسب إليها في الصف الثالث الابتدائي، وبما أن مدارس السعودية لا تعلّم الإنجليزية إلا ابتداء من الصف الخامس، كانت كل مدرسة ترفضني لأنني ببساطة لا أعرف إلا الأحرف الأبجدية وبعض الكلمات، دأب والدي على تعليمي إياها في البيت.

قدّم والدي طلباً لمدرسة الراهبات الوردية بما أن أغلب فتيات العائلة مسجلات فيها، فيما رُفضت كلياً بما أن اللغتين الإنجليزية والفرنسية أساسيتان في المنهاج التعليمي الخاص بها، ورأيت نفسي أذهب مع بنت الجيران إلى مدرسة أخرى هي الوحيدة التي قبلتني بصعوبة، وبعد مئة وساطة.

دأبت بعد ذلك على الاهتمام بالإنجليزية لتعويض ما فاتني. كنت أحصل أغلب الأحيان على صفر مدوّر على عشرة في امتحان الإملاء، وبالكاد كنت أنجح في الامتحانات العادية. لكنني لم أستسلم، وفي الأعوام الثلاث الأولى جهدت لأكون أفضل في كل مرّة، وعقدت صداقات مع معلمي ومعلمات اللغة الإنجليزية، فيما حرصوا هم على الاهتمام بي أكثر من غيري لظرفي الخاص. وتحسنت كثيراً مع الوقت، حتى أصبحت الآن مرجع العائلة في أي كلمة تستعصي عليهم، فيما أدرّس أختي الإنجليزية، وهي في مدرسة الراهبات التي رفضتني قبل سنوات طويلة.

أنا الآن أنتقم من بنات عماتي اللواتي كنّ يتحدثن الفرنسية والانجليزية إذا ما أردن أن لا أفهم ما يدور من حديث بينهنّ، وأنسحب بهدوء حتى لا أضطر لضرب إحداهنّ لما كان يسبب لي ذلك من حرج وامتعاض.

*****

أوقفتني اليوم سائحة في البلدة القديمة تسأل بالفرنسية عن اتجاه شارع ما –حسبما فهمت من حركات يديها، واعتذرت لها بالإنجليزية عن عدم معرفتي بمكانه. فيما شدّني صوت من خلفي نطق بالفرنسية "لُسي"، التفتّ لأرى يداً ممتدة إلى مكان الشارع، كانت فلاحة تبيع الفجل.

5 حزيران 2010

*بالفرنسية، تعني "من هنا"

أربعة فناجين قهوة

"كان ألذّ فنجان قهوة شربته في حياتي.." هذه الجملة الأولى في رواية كنت على وشك كتابتها، ولم أتمم الصفحة الأولى منها، حتى رميتها في "Recycle Bin" حاسوب العائلة، إذ لا بد سيطالها المسح الضوئي والكيميائي والفيزيائي لكعكشات يديّ والدي في الملفات، وسترشده قليلٌ من التفاصيل، لتكون نهايتي على مصرف بالوعة البستان. "أنا وهو في سيتي مول عمّان، وربع ساعة على بدء الفيلم، في تشرين الثاني (اللعين)". وانتهى فنجان القهوة ذاك في "سلة مهملات" الحاسوب.

***

فعلتها مرّة بعد رهان، جلست في أكثر المقاهي سوقيّة في العقبة بين أكثر من خمسين رجلاً: سائقي سرفيس، ماسحي أحذية، عمال معدومين، شباب عاطلين عن العمل، بائعي علكة.. وأكثر. وطلبت فنجان قهوة على الريحة، فيما راح مروان يصوّرني من بعيد إثباتاً على أنني فعلتها، وكل النظرات تتجه نحو فتاة تلبس بنطالون أحمر وقميصاً ملوناً، كنقطة دمٍ بين شباب "بلا دم". وما أن وصلنا بهو الفندق لنثبت للمراهن حكيم أنني فعلتها، حتى اكتشف مروان أنه لم يحفظ الصور. وخسرت ٥٠ ديناراً، وراح فنجان القهوة ذلك مع تكنولوجيا غبية.

***

فنجان قهوة وياسمينة على برندة غرفتي، الساعة الرابعة والنصف فجراً..

ثمّ.. صوت عمّال تنظيف "البلدية" في المبنى الملاصق لمبنى سُكناي، تبعها رائحة زيوت السيارات من الشارع التحتاني. لم أتمم الربع ساعة، حملت الفنجان ورميته على دواوين القباني "حارة وادي الجوز لا تشبه بيتك الدمشقي يا صديقي الشاعر". هذا الفنجان لوّث محبتي لرومانسية نزار وأتباعه.

***

هذا الأخير، اندحش صانعه في الغرفة واستعصى هناك، وخرجت "حردانة" وأنا أنتظر الفنجان الذي لم يأتِ. وجاءت بسببه مكالمة أشبه بتجارب حصة العلوم في الصف الخامس: كأسان يربطهما حبل طويل، فتاة داخل الصف، وأخرى خارجه. أنا كنت على الرصيف وهو في الطابق الخامس يطلّ من الشباك، يطلب مني الصعود لشرب الفنجان المتأخر، نتحدث على الهاتف في شؤون العمل ولقاء لم يتم. هذا الفنجان لم أشربه، لكنه يضاهي لذّة الفنجان الأخير قبيل الإعدام.

17 حزيران 2010

في اللحظة التي رأيت فيها وجهه يتسع في أفق نظري، وملأ تدوّره فضاء عيني، أسدلت جفوني على جلجلة خوف وفرح، واندلقت في رأسي قصيدة قديمة عتّقها الغبار، وسالت بسلاسةٍ على أرضية المكان كأنني كتبتها البارحة، ودقّ البيت الأخير بإلحاحٍ على أبواب رأسي صارخاً "قبلةٌ ضجّت بموضعها.. صاحت بغير ذي فكرِ.. أنا دوماً أحسبني من الإلحاد والكفرِ.." و كررَتْ "أنا دوماً أحسبني من الإلحاد و الكفرِ".

انمحى كل شيء حولي حين تلامست شفاهنا الأربع، وأطبقتُ بحركة ميكانيكية، فتحسستْ أنامل شفتي العليا شعيرات شاربٍ غير مشذّب، فيما انجرت أظافر الشفة السفلى على رخام أسنانه، محدثةً صوتاً اقشعرّ له بدني، زاده مشيُ أنامله على يسار جيدي، رامياً ما بقي من شعري - شاهداً على الجريمة - إلى الخلف، وتجاهلت خيطاً من العرق يزحف على صدغه الأيمن، وتسارعت الأنفاس فملأت نظارته تعرّقاً زاد ضبابية اللحظة.

"ها.. هكذا إذاً يكون طعم القبلة الفرنسية" هكذا فكّرت لحظتها، تشعر بالرضاب مختلط التركيبة، ويتراكض اللسانان كعشاقٍ في فيلمٍ سينمائي في الستينات، وتفقد الشعور بأنك تجلس على كرسيٍّ خشبيٍّ غير مريح، ويطفو حتى سطح الغرفة جوّ مخنوق بنفسين فقط.

لم يستطع نباح أبواق سيارات الزقاق العمّانيّ وقت الظهيرة أن يوقف دفق القُبل، ولا أبردني صفعُ نسمات تشرين الثاني وقتها، جُلّ ما شعرته كان

ارتطامي بحقيقة أنني أقبّل للمرة الأولى، قبلة فرنسية رطبة، ولّدت في نفسي شعوراً بالغبطة لا يماثلها فيه إلا الجلوس في الجنة.

ترنحت للخلف وكأن نبيذها أسكرني تماماً، وأحدث انفصال الشفاه مع الشفط فرقعةً مضحكة، تناسبت ومشهدَ الطفلة ذي العشرة أعوامٍ هي أنا، تربعت على بلاط الذاكرة أمام شاشة التلفاز، تترقب المشهد الأخير في فيلمٍ مصريٍّ بالأبيض والأسود، يقبّل فيها البطل البطلة، وسمعتها مشمئزةً تقول "يع!".

21 آذار 2010

12 ساعة على الجسر

لم يُخيّل لي أن الوقوف في الدور سيأخذ أكثر من ساعة، حين رأيت المسافرين من الأردن إلى فلسطين مصطفّين على البوابة الخارجية لجسر الأردن قبل الدخول إلى غرفة الانتظار، وصدق من قال "هين قرشك ولا تهين نفسك"، فيما فضّلت إهانة نفسي والانتظار في الدور على أن أعود إلى القدس VIP من الجهة الأخرى لمعمعة الواقفين هنا، وأدفع 100 دولار سأستفيد منها لاحقاً في شراء بعض الحاجيات قبل الانتقال للعيش في عمّان.

وقفت تحت ألواح الزينكو، عُلّقت على المواسير التي تحملها مراوح للزينة، وحين طلب الواقفون من شرطي التنظيم أن يشغّلها، قال إنها معطّلة "علينا وعليك يا حج، ما هيني واقف زيي زيّك". ولم ينفع أنفي الكبير في أخذ كمية كافية من الأكسجين في غور الأردن في أيلول، كان الطقس حاراً بشكل كافي لتتحمّص كحبّة فول سوداني في شوكولاطة سنيكرز منتهية الصلاحية.

نظرت إلى ساعة يدي الفضيّة التي أشارت عقاربها المضيئة إلى الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً بالتوقيت الصيفي -بما أنني مازلت على الجهة الأردنية-، وقدّرت الوصول إلى قاعة الانتظار بعد ساعة على الأكثر.

بدأ الدور يزدحم أكثر مع السير إلى الأمام، عربات الشنط تصنع من قدميك لحمة كفتة فرمة ناعمة، تسير بقوّة الدفع والجذب، تتسلل يدك بصعوبة إلى جيبك لتخرج ورق الكلينكس المعطّر، ولا فائدة تذكر لمثله، فعمدت

إلى تعليق رأسي عالياً قدر استطاعتي لآخذ نفساً بعيداً عن روائح العرق المتصببة من العجائز، والأطفال البائلين على أنفسهم، وآخرين لم يستحموا منذ العيد.

تقديري للوقت لم يُجدِ هذه المرّة، فيما فكّرت بالانسحاب من المعركة، لكنني لم أعد قادرة على الخروج من بين الصفوف لأعود إلى بيت عمتي المكيّف في عمّان، وتذكّرت تهديد والدي "تعودين اليوم، لا تتأخري ولا ساعة واحدة" وكأنه يقول بعدها "وإلّا"، وما أدراك ما الـ"وإلّا" خاصته، إذ من الممكن أن يلغي موافقته على الدراسة في الأردن بكلمة واحدة، تنهي كل ما ركضت من أجله شهراً كاملاً من التحضيرات.

صوت العجوز التي وقفت بجانبي لا بدّ أثّر في دفّ الأذن اليمنى، عزفت معزوفات رفيقاتها في النضال للوصول إلى غرفة الانتظار "ادفشي يا ستّي.. زقّي من هون.." وليت كان هناك مجال لـ"هون" أو هناك أو حتى سنتميتر واحد "أين أذهب؟ لا يوجد مجال" كنت أردّ عليها وبالكاد تسمع. وزد على ذلك أن مراوح المكيفات في الغرفة الداخلية تضرب في وجوهنا، نحن الواقفون في الجهة الخارجية لها، أي أن المروحة بحرارتها العالية تنظفك على نظام "دراي كلين" ساخن من الآخر.

سلّمت شنطتي عندما وصلت أخيراً إلى مكان شراء التذاكر، إذ لا مجال للتراجع بعد ذلك. ولا يمكن لأحد أن يتصوّر الضغط البشري على شباك التذاكر، لقد شعرت لحظتها أنني ارتفعت عن الأرض مع تزاحم الناس حوله، فيما رأيت الموظّف جالساً هناك وبكل أريحية يقطع التذكرة ويأخذ النقود من الناس وهو يتهوّى بمروحة لا بدّ منذ زمن اختراع المراوح، ويتناول كأس الماء البارد، والناس يتصببون عرقاً لزجاً وهم ينتظرون أخذ التذكرة من

بين يديه البطيئتين.

تناولت الدنانير الثلاث وأعطيتها لأحد الشبّان الواقفين هناك، فيما صاح "أريد خمسة قروش بعد" وبحثت في محفظتي فلم أجد، فدفع هو وبقي بعدها يثرثر معي لقاء القروش الخمس التي دفعها عنّي، ولم يكن ينقصني صوت آخر يكلمني بشكل خاص، إذ أن الأصوات الصادرة من غرفة الانتظار كانت كافية لتفريغ غابة كاملة من حيواناتها.

أخذت الرقم من مدخل غرفة الانتظار بعد أن كذب محمود-الشخص الذي دفع عني- على الشرطي الواقف هناك، بأن أمه دخلت قبل قليل وأنا ابنة خالته، وعلينا الدخول بسرعة قبل أن تغادر أمه المكان وتضيّعه.

نظرت إلى الرقم الذي أحمله، كان A469، فيما سألت موظّف النظام هناك "هل صحيح أن الرقم المضيء هناك هو A٦١؟" فهزّ برأسه إيجاباً، أي أن أمامي ما يقارب أربعمائة رقم. أخذت زاوية في مكان ما، إذ أن كل الكراسي كانت محتلّة، وتركت نفسي للسب بصمت لدقيقة علّي أفرّغ ما في داخلي من جنون، إذ كنت على وشك الانفجار في أية لحظة.

مدّت فتاة يدها من وراء الحاجز الحديدي الذي يفصل بين غرفتي الانتظار، تحمل رقم A162، فاستغربت فعلتها، لكنها أخبرتني أن دورها جاء مع أمها التي تحمل رقماً سابقاً، فشكرتها وتوجّهت للبوابة التي تدخلني إلى غرفة الانتظار الأخرى، فنادى الحارس "ابتداءً من الرقم 100 وحتى 150" وبعد قليل "ابتداءً من الرقم 150 وحتى 200" فدخلت إلى الغرفة الأخرى أخيراً.

مشيت من مكان لآخر حتى يصل رقمي، فيما كان شرطي النظام هناك يصيح بالوقفين أن يجلسوا، لكن أين نجلس؟ في أحضان بعضنا؟ لا يوجد كراسي. وحين وصل دوري أخيراً، وقفت على شباك الجوازات، وسلّمت

أوراقي، فختم عليها الموظف هناك، وسلّمها لموظّف آخر. وحين نادى على اسمي الأخير، سلّمني الجواز دون البطاقة الخضراء، أي عليّ أن أنتظر لحين مناداتي من موظف آخر لأحصل على البطاقة وأذهب في حال سبيلي.

وقفت. جلست. قرفصت. مشيت. ولم يأت الموظّف بعد. وحين شرّف، صار يصرخ بالواقفين أن يجلسوا. أين؟ على رؤوس بعضنا؟ كأنه أمر نفسه، لم يستجب أحد لذلك، فحرد! دخل إلى غرفته مجدداً، وطز في كل الموجودين الذين ينتظرون على أحر من الجمر للعودة إلى بيوتهم.

عاد مرة أخرى حاملاً الصفطة نفسها، وأمر الجميع بالجلوس مرّة أخرى. أين يا حبيبي؟ على أحضان بعضنا؟ قرفصت قرب إحدى الفتيات، وانتظرت سماع اسمي. فيما كان ينادي كلّ مرّة باسم الشخص واسم والده فقط. فرغت يداه ولم يكن لي واحدة من بين البطاقات. فبحثت عن مكان آخر أجلس فيه، فتوفّقت بالحصول على مكان في زاوية القاعة قرب عائلة صغيرة. كانوا يحملون الشبيس الذي بدا لذيذاً في نظري، وتذكّرت توصيات عمتو ناديا بأن آكل أكثر على الفطور، فيما اكتفيت برغيف واحد كان أكثر من اللازم وقتها، وتمنيت لو أني حملت السندويشة التي عملتها آخر الأمر، لكنني رفض على أساس أنني سأصل إلى البيت باكراً، آكل وأذهب بعدها إلى ورشة الكتابة للصغار، يال الأحلام السعيدة!

عاد الموظف بلباسه العسكري، قميص أزرق مكوي جيداً مبلل بالعرق، وبنطلون كحلي أطول مما هو مفترض. بدأ بالمناداة، وأنا أدعو الله أن يكون اسمي بين أحد الأسماء. وإذا به يلفظ أخيراً "مي يعقوب". ركضت ركضاً لآخذ البطاقة، تناولتها منه وانسحبت إلى موقف الباص.

عندما وصلت الغرفة التي تقود إلى موقف الباصات، بعد حوالي ثلاث

ساعات من الانتظار، أوقفني ضابط على جهة، وأجلسني على كرسي لأنتظر وصول الباص مع المنتظرين الآخرين. انتظار آخر إذاً؟ دخلت السوق "الحرّة" لأشتري جروس سجائر لبابا، وجدت أن السوق فرغ من أغلب الأشياء، الناس كانت كالجراد. اشتريت غولواز وكيس شوكولاتة مشكّلة، وخرجت لأصعد في الباص، إذ أن المنتظرين كلهم خرجوا إلى الموقف وأنا أبحث عن دخان السيد يعقوب.

بحثت عن شنطتي بين أكوام الشنط في الخارج، وجدتها مرمية وقد تكسّرت أجزاء خارجية منها، كما لمّت غبرة الشارع كله، وحاولت استرجاع قليل من كرامتها بأن مسحتها بمحارم كانت في جيبي، وجررتها ووقفت أمام الموقف تماماً موقع وقوف الباص ومكان بابه، حتى أقفز مباشرة إلى داخله، إذ أن المتواجدين هناك كانوا أكثر من خمس وخمسين، أي لن يتسع لهم باص واحد.

تذكّرت أن عليّ رمي الشنطة في الصندوق قبل أن أصعد، وما أن فعلت ذلك حتى انهالت الشنط من حولي على المكان، ووجدت نفسي محشورة بين من يضع شنطته في الصندوق وبين من يحاول الصعود إلى الباص. محمود الثرثار حجز لي مكاناً بجانبه، لكنني رفضت وكنت على وشك سحب شنطتي من بين الأكوام والذهاب إلى الباص الثاني، لكن سائق الباص فتح لي الكرسي الذي بجانبه وأجلسني عليه، فيما نظرت في المرآة المعلقة على الباب فوجدت الناس تتزاحم للصعود في الباص الآخر، أي أنني ما كنت لأتمكن من الصعود إليه أيضاً.

حضّرت الأوراق وجواز السفر ليكشف الموظف عليها قبل السير قدُماً، وأخذ بطاقة بيضاء كنّا قد عبأناها أوّل اصطفافنا صباح اليوم، إضافة إلى

التذاكر التي كدت أن أخنق من أجل الحصول عليها، وكشف على جواز السفر. وقف الباص لدقيقة قبل أن يسير باتجاه الجسر الإسرائيلي.

شعرت بقليل من التحرر، إذ أن منظر الغروب من وراء هضاب الغور كانت أفضل ما رأيته منذ الصباح. وصل الباص الجسر الخشبي، قرأت عليه لائحة صغيرة تقول "تعاون بين الأردن واليابان"، اليابان، أكثر بلاد العالم نظاماً، ما الذي جاء بكم أيها اليابانيون إلى هنا؟

انتظرنا حوالي ساعة هناك قبل أن يوقفنا جنود إسرائيليين ليفتّشوا الباص. نزلنا ووقفنا تحت لوح زينكو يلمّ حرارة الغور كله، وصعد جندي إلى الباص ليفتشه، لا أدري عن أي شيء كان يبحث أو يفتّش.

صعدنا ثانية إلى الباص، ومشى فينا إلى بوابة الدخول إلى الجسر الإسرائيلي، غابت الشمس تماماً الآن، فافترش سائق الباص حراماً صوفياً أرض الشارع وتمدد عليه، عرفت من ذلك أن الأمر سيطول. حاولت الاتصال بأهلي بعد أن استبدلت شريحة الرقم الأردني برقمي المحلّي "أورانج"، إلّا أن بطارية البلفون خانتني، بالكاد سمعت صوت بابا على الجهة الأخرى، وأخبرته أن الأمر لا شك سيطول كثيراً، ولا داعي لأن يقلقوا علي، ولا أعرف إذا ما سمع الجمل الأخيرة التي طسستها وراء بعضها لأستغلّ الشحطات الأخيرة من البطارية. كانت هذه آخر محادثة معهم، وعرفت أنني لن أسلم من تعزير أبي لي لعدم شحن البلفون جيّداً قبل الخروج من بيت عمتي، وكم مرّة عليّ أن أذكر أنني لم أحسب هذا الحساب قط.

بقي الباص على وقفته حوالي الساعة والنصف، فيما نظرت إلى الخلف لأرى الباص الذي تزاحم الناس عليه وكدت أصعد فيه، فلم أجده خلفنا. وحين سألت سائق باصنا عنه، اتصل به لاسلكياً، فأخبره أن الجسر الإسرائيلي

اكتفى بالعدد لهذا اليوم، وأعادهم إلى الجسر الأردني. كنت سأقتل نفسي لو أنني كنت فيه وعدت بعد رحلة الشقاء هذه إلى الأردن من جديد.
أضاءت المجنّدة الإشارة الخضراء أخيراً فسار الباص مسرعاً إلى مدخل قاعة الجسر الإسرائيلي، فأنزل العاملون الشنط وبحثت عن شنطتي من وراء الزجاج حتى أسحبها وأركض سريعاً إلى الداخل. فتح السائق الباب فانطلقت سريعاً وسحبت الشنطة من بين الأكوام، وركضت بها لمكان تفتيش الشنط، وتمتم أحد الواقفين هناك "أعطي العامل دينار بمشيلك الشنطة على السريع". خفت ولم أفعل فقد ظننت الأمر رشوة، ولم يسبق لي أن رشوت أحداً.

وقفت مع المصطفّين لأستعيد جواز سفري الذي أخذه العامل ليختم عليه رقم الحقيبة، وبدأ العاملون هناك (أربعة أو أكثر) بالمناداة مرّة واحدة، فتداخلت الأصوات والأسماء بشكل شوّش عقلي، وتتبعت الأصوات كلها دفعة واحدة لأحصل على اسمي الذي ناداني به عامل سمج، دقق كثيراً في صورتي قبل أن يناولني الجواز، فيما انحشرت مجدداً بين المصطفّين لدخول القاعة المكيّفة.
حزنت كثيراً عندما وصلت إلى القاعة فوجدت أهل "الضفة الغربية" واقفين بالدور، فيما أهل القدس دخلوا من الجهة الأخرى سريعاً وجلسوا على الكراسي، بعد أن سلّموا تصريح الخروج بانتظار استلام هوياتهم. فيما كان "أهل الضفة" ينظرون إلينا بعين الغضب والحقد لأننا مرتاحون بينما هم واقفون. إلّا أنني تمنيت لو أنني أقف معهم، إذ أنني سلّمت التصريح، وعصيت الموظفة هناك حتى تجلب الهوية، فيما سار دور الضفّة سريعاً.

لم أعد أحتمل أكثر، جلست على طرف الكرسي وانفجرت ببكاء صامت، اثنتي عشرة ساعة لأقطع الجسر الفاصل بين الأردن وفلسطين. هذا أمر لا يعقل.

وقفت للموظفة مثل "العمل الرذل"، وبدأت موشّح البهدلة والردح بالطريقة التي تليق بعاملين لا يحترمون وقت الآخرين ولا يفهمون معنى الانتظار، كنت أشبه بواحدة لم يربها والدها ستة وعشرين عاماً متواصلة على الانضباط والاحترام والصبر، هؤلاء لا ينفع معهم أن تكون مؤدباً أبداً.

ذهبت الموظفة إلى غرفة أخرى، وعادت بعدّة بطاقات هوية، لم تكن إحداها تخصّني، أكملت البكاء الداخلي على نفسي، فيما ذهبت الموظفة مرة أخرى وتأخرت حوالي نصف ساعة أخرى، وعادت تحمل هويات ثانية. نادت على الأسماء كلها، وأبقت هويتي حتى النهاية، ونادت أخيراً "كالوتي.. ماي". وقفت على الشباك فسألتني "بابا؟" لم أفهم عليها، "بابا شو؟". "اسم بابا". "يعكوب" قلتها بنزق، ناولتني الهوية فأخذتها وركضت إلى آخر محطّة.

بحثت عن شنطتي مرة أخرى بين الشنط، كانت أكثر اتساخاً من المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، جررتها كيفما اتفق، وجررت نفسي هي الأخرى إلى الخارج. أخذت تذاكر التاكسي وتوجّهت للسيارة وصعدت. انتظار أيضاً هناك، كان ينقصها راكب واحد، جاء أخيراً، وانطلق السائق إلى القدس.

ليست الطريق من الغور إلى القدس طويلة، لكنها الليلة كانت أطول من الطبيعي. وصلت مكتب تاكسي الأقصى الذي يبعد خمسين متراً عن منزلنا على الأكثر، هذه الخمسين التي شعرت أنها خمسمئة، جررت شنطتي على أسفلت الشارع الهادئ، وحده كلب الجيران بقي ينبح منذ نزولي

من السيارة وحتى وصولي إلى البيت، ورفعت بنطلوني عدّة مرّات إذ أنني استغنيت عن الحزام منذ أوّل مرور عبر البوابة الإلكترونية، كما أن معدتي "هفتت" نهائياً، إذ لم آكل منذ أكثر من نصف يومٍ كامل.

دخلت البيت. بالكاد سلّمت على الأهل، وارتميت على أقرب كنبة".

"مي.. مي.. مي...".

-لا تنادوني باسمي رجاءً، نوديت به اليوم أكثر مما احتمل".

أيلول 2010

O سالب*

سقطت على رأسي في السادس عشر من صفر عام ١٤٠٤، وأحفظ التاريخ الهجري لأنني ولدت في الرياض في السعودية، كما تحسباً لعودتي إلى ملفات المستشفى الذي ولدت فيه أبحث عن حقيقة ما.

بدأت القصة يوم زار المدرسة طاقم طبي لفحص عينات دم الفتيات، باحثين عن فئة دم O-. وتقاطرنا إلى غرفة المستوصف نتدافع إلى الخلف خوفاً من مشهد الإبر الصغيرة تنخز أصابعنا الوسطى، فتنقط الأخيرة قطرات من السائل الأحمر على زجاجات مسطحة رفيعة، تزيد عليها الممرضة المتشحة بالأبيض بعضاً من قطرات من محلول أصفر، وتميل بالزجاجة إلى الأمام والخلف وترفعها إلى الضوء الخافت الداخل من كوة الشباك الطويل، فتعلن A, B, AB, O.

دخلت الغرفة بقوة الدفع، ورغم أنني لا أخاف الدم والجروح، تظاهرت بذلك حتى أبدو كالفتيات الأخريات. مددت يدي نحو الممرضة وأغمضت عيني، ولم تستغرق أكثر من ثوانٍ حتى أعلنت "أوْ سالب، خذوها إلى الغرفة الأخرى".

مُدّدت على سرير، ووُصلت بأنبوب رفيع من باطن ساعدي إلى كيس شفّاف، وراحت المعلمة تواسيني معتقدةً أني أشعر بالخوف والغثيان من مشهد الدم المتدفق عبر الأنبوب الطويل، فيما كنت مستمتعة بذلك بساديّة غريبة، رغم أنني لم أتجاوز العاشرة وقتها. شاركتني بعد قليل أربع

فتيات كنّ يبكين ويرتجفن، ولا بدّ أن دماءهن تطابقت مع المطلوب، وفكرّت "بضع فتيات من بين أكثر من ألف، لا بدّ أننا مميزات حقاً".

عدت إلى البيت أروي ما حصل معي في المدرسة، فيما غضب أبي من سحبهم دماً دون الرجوع إلى ولي الأمر، وحسبت أن دمنا فعلاً نادر لا يشبه دماً آخر، ولا بدّ أنه لم ينتبه إلى تفصيلة أنهم فعلوا ذلك لمن يملكون فئة دم O- فقط.

عرفت بعد أعوام أن عائلتي (أو ليست عائلتي) بكاملها تحمل فئة دم O لكنها موجبة، وتساءلت "أيعقل أن تكون الممرضة أخطأت التشخيص يومها؟"، ورحت أعبث في أوراق العائلة باحثةً عن شهادة ميلادي في خزانة أمي، وقرأت مراراً "اسم المولود: مي. اسم الوالد: يعقوب. اسم العائلة: الكالوتي". ومُلأت الفراغات المتعلقة بالمواطنة السعودية بنقاط، أي لا رقم وطني بطبيعة الحال، فيما جاء في خانة الجنسية: أردني. وبحثت طويلاً فعرفت أن السعودية بالذات، تمنع التبني بشدّة، فذهبت لاحتمال أنهم بدّلوني في غرفة الولادة بأخرى لا شك.

لم أطرح الفكرة على والدي قط، كنت أحاول استشفاف ذلك من أمور أخرى، إذ لا بدّ ملأت القصص المشابهة التي سمعتها رأسي بشكوك كثيرة كانت تقفز إليّ كلما ذُكّرت بأنني مواليد الرياض.

وجاء طبيب الأسنان يوماً ليجهز عليّ تماماً حين شخّص النقاط الصفراء التي على أسناني الأمامية أنها تشبه إلى حدٍّ كبير ما يعاني منه سكان منطقة الإحساء القريبة من الرياض، أو أنها تعود إلى مياه السعودية الملأ بالفسفور شربتها أمي أثناء حملها بي، فيما أكدت هي، فكانت الضربة القاضية، "لم نكن نشرب إلّا مياه معدنية!".

في كل مرة أدخل فيها عند طبيب العائلة، أرى على شاشتي عيني كلما رمشت سؤالاً ملحاً "أيمكنني أن أعرف فئة دمي في غرفة المختبر في المركز الطبي؟"، وأفرك عيني لأمحوَ السؤال عنهما، لخوفٍ حقيقيٍّ من أن يكون O- فتتأكد شكوكي وظنوني بعد حوالي خمسة عشر عاماً.

مراهقتي التي تأخرت حتى العشرين أنهكت والديّ، وكلما تساءلا عن عقلي اليابس وتمرّدي، أرجعت أنا ذلك -دون أن أقوله- إلى أصولي السعودية. وبعد كل مشكلة أسببها يصرخ بي والدي "أنت لست كباقي أخوتك، ستكون نهايتي على يدك"، أوشك على القول "ابحث عن ابنتك المطيعة في السعودية".

7 أيار 2010

* ما كنت لأكتب النص، لولا تأكدي من فئة دمي منذ أسبوعين، وهي O بالتأكيد، ولكم أن تختاروا ما بين سالب وموجب.

حاضر ستّي

كان يوماً طويلاً في العقبة، أمضيته مع أصدقائي في محاضرات صباحية وجولات متعددة في شوارع المدينة، أنهكني السير وجولة الليدو البحرية، أردت آخر الأمر أن أجد السرير أقرب من أي شيء آخر.

دخلت الفندق الذي هدأ بعد أول ساعات اليوم الجديد، وأُطفأت معظم الأضواء في اللوبي. ألقيت التحية على عامل الاستقبال، واتجهت مباشرة إلى المصعد، وفي اللحظة التي ضغطت فيها على رقم سبعة، دخل المصعد شاب هزيل، أنهكه الخمر وسوّد الحشيش أسفل عينيه، وغرق وجهه في السهر، ولوّث ملابسه غبار الشوارع، وعجبت كيف تمكن من الدخول إلى الفندق دون أن ينتبه إليه أحد.

سألني بالإنجليزية، إذ لا بدّ شوّش رأسه الكحول فلم يعد يميّز سماري من شقار الأجنبيات "أوّل مرة لك في العقبة؟" هززت رأسي إيجاباً، لم أشأ التحدث معه، فعاد وسألني ثانية "من تل أبيب؟" ابتسمت، هكذا إذاً، تعتقد أنني يهودية! "نعم من تل أبيب" أجبته بالإنجليزية، لم أعرف من أين جاءتني الجرأة، أردت استثارته فخلعت كنزتي، "ترغبين بشرب شيء معي في البار، إنه في الطابق الثامن؟" تدوّرت عيناه الحمراء، "لا، أشعر بتعب شديد، أنا ذاهبة للنوم".

فتح أخيراً باب المصعد عند الطابق السابع، شعرت بخوف شديد لحظتها، كيف سمحت لنفسي أن أفعل ذلك؟ اتجهت إلى باب غرفتي

وتلمست جيبي فلم أجد المفتاح، خفق قلبي بشدّة حين تذكرت أنني تركته مع زميلتي في الغرفة، والتي مازالت في المقهى الذي تركتها فيه على بعد شارعين من الفندق.

طلبت المصعد مرّة أخرى لأنزل إلى الاستعلامات فآخذ مفتاح الاحتياط من هناك. في اللحظة التي فتح فيها باب المصعد، كان الشاب نفسه على وشك الخروج منه إلى الطابق الذي أنا فيه، ارتعشت. عاد إلى الداخل دفعة واحدة ودخلت وراءه مباشرة، "ألم تكن تهمّ بدخول الطابق؟" "لا، غيّرت رأيي!" كنت على وشك الإغماء من شدة الخوف، ودار في رأسي مشاهد الاغتصاب في المصاعد، وقرأت آيات من القرآن، خوفاً لا محبةً.

خطرت لي فكرة، أصلح طرق الدفاع عن النفس هي الهجوم، وانتظرت وصولنا إلى الطابق الأول، وحين أضاء رقم (1) نظرت إليه بغضب بطرف عيني وقلت له بالعربية أخيراً "إياك أن تتحركش مرّة أخرى بفتاة" تغيّرت ملامح وجهه دفعة واحدة، أيقظته من غفوة التهامي بنظراته "أنت عربية؟" نظرت إليه مبحلقةً من فوق، إذ صغر حجمه ضعفين"أنا من المخابرات يابا". ولكم أن تتخيلوا اندفاعه من باب المصعد الذي فتح في الطابق الأرضي وهو يتمتم "حاضر ستّي! حاضر ستّي!".

5 حزيران 2010

أم شحادة

وجدّت نفسي في مكان غريب أنظّم حدثاً مهماً لا أعرف ما هو تماماً، ورأيت كبيرات السن في كل مكان، بالكاد قادرات على السير، وأنا أساعدهنّ لإنجاز الحدث على أفضل وجه. "أي حدث؟" تلفّت حولي من جديد، المزيد من العجائز وبعض الشباب يساعدوهنّ في التحرّك. كثير من الفساتين الملوّنة وعلب المكياج، وجوه عجائز من جديد تتلوّن كالمهرّجين، وأخريات تضع اللمسات الأخيرة على لباسهن قبل الخروج إلى المنصّة. "أيّ منصة؟".

وجدت نفسي فجأة بين الجمهور، والعجائز يسرن على المنصّة والناس تهلل فرحة، وبدأت أضحك بشدّة على لباس البكيني، وسمعت بعض الشباب الجالسين في آخر المسرح يصرخون بمجون "لباسكنّ بحاجة إلى الكيّ صبايا"!

أطلّت أم شحادة من بين المشاركات، لحظة، أم شحادة زوجة عم أبي توفيت منذ شهرين،" لا، لا، ماذا تفعلين هنا؟" ورحت أصرخ من بين أصوات المشجعين الفرحين "أين أنت ذاهبة؟ ألا تسمعين؟ أنت ميتة!" استمرت بالسير نحو منصّة التتويج، سارت بخطىً متعثّرة، كمن يتدحرج على العشب بجسدها المدوّر، صرخت أكثر، لكنها لم تسمع، صعدت إلى كرسيّ الملكة، ولوّحت بساعدها الثخين للأخريات، فيما هنّ يلوّحن بالمقابل، بعضهنّ سعيدات لأنها فازت، وأخريات وتوتن بأنها لا تستحق. صحوت فجأة من حلم ثقيل، رفعت المجلّة التي نمت على صفحاتها وقرأت "ملكات جمال العجائز".

5 حزيران 2010

صراصير

رفعت الغطاء الأبيض، وحاولت النظر تحته، فلم أجد شيئاً، كانت الأجواء غباشاً في غباش، وكل شيء حولي غير واضح، حتى ماكينة وسط الغرفة كانت دون لون، تخرج أوراق بيضاء ملأت الأرض، حاولت التحرك فحاصرتني، وحين صرت أدفشها بقدمي إلى الأمام، لاحت كائنات صغيرة سوداء، أشبه بالصراصير، لها شوارب طويلة، وأرجل كثيرة، صارت تمشي باتجاهي، وتفض بكارة الأبيض من حولي، حتى ماكينة الورق أصبحت تضخّ صراصير هي الأخرى، صرت أصرخ دون صوت، وأبكي دون صوت، وأتحرك بصعوبة بالغة.

صحوت، كانت الغرفة مظلمة، وبدأت أتبيّن أحجام الصناديق المملوءة بالأغراض، وعادت لي الطمأنينة حين تركبت أجزاء المكان الجديد في ذاكرتي القصيرة. أنا في غرفتي الجديدة، وهذا أخي الصغير على السرير الآخر، وهذه صناديق الأشياء التي حملناها إلى الخُبر، وتلك الصراصير التي ملأت حلمي، لا بدّ حملتها معي من الرياض أثناء انتقالنا ليلة البارحة، حيث شعرت أن المنزل القديم كان ينتقم منّا، فأخرج جيشاً من الصراصير قبل انتقالنا منه بيومين.

"الصراصير والجواسيس كائنات وديعة..

انظروا إلى دماثة هذا..

ورقة بشاعة وجه ذاك"

نجوان اسكت، "فكرتنا عن وضاعتهم" ليست مفبركة، أنا أكره الصراصير والجواسيس على حدٍّ سواء، منذ مليون سنةٍ أو أكثر.

8 أيار 2010

رأس الفطر

يا إلهي كم كنت "نقاقة" وأنا صغيرة، حين أتذكر هذه الصفة بالذات، أحزن على أمي، وأذكر كيف نططت أمامها والدموع الكاذبة تملأ وجهي "أريد قصّ شعري". كان طوله قد وصل أسفل ظهري، وكان الجميع يحسدني عليه لطوله وتموّجه، لكنني بغيرة طفولية من شعر زميلاتي في الصف، أردت قصه في ذلك اليوم بالذات.

وصلت الصالون وجلست على المقعد العالي المخصص للصغار، وبدأت الكوافيره تجزّه صعوداً.. صعوداً.. صعوداً، حتى وصلت رقبتي.

كلما رأيت رأس الفطر (المشروم)، أتذكّر شكل رأسي يومها.

5 حزيران 2010

أكلته النار. تعبير جسّد ما رأته عيني، مقرفصة قبالة النار في مهب الريح، وملأني القطران وفتات الورق المحترق، وسال على وجنتي نهران كانا أشدّ حرارة من اللهب، وعلق الغبار الأسود المتطاير من دائرة الجثّة بهما، واستحال كل شيء من حولي بشعاً يرقص رقصة الموت باستهزاء، حيث رأيته من خلف زجاج عينين ملأتهما الدموع، ولا أدري كم من الزمن مرّ قبل أن تأكل النار كل شيء، إذ خرجت من إطار الساعة في الوقت الذي تأملت فيه ما بقي من ذاكرتي على صفحات المفكّرة.

***

وصلت حاملة كتبي المدرسية إلى البيت في يومٍ دافئ في شباط -إللي ما عليه رباط-، وعرفت من اللحظة الأولى التي التقت فيها عيني بعيني أمي، أن أمراً خطيراً قد حصل، إذ أن تعبير وجهها كان على غير عادته.

رميت الكتب في الغرفة وتوجّهت صوب الجهة الأخرى من البيت، صرخت أمي "إلى أين؟"، ابتسمت بكل بساطة "إلى الحمّام". نبرة سؤالها أقلقتني، ودار في رأسي مجموع أسئلة واحتمالات بمعدّل مئة كل ثانية، أيقظني منها واحدٌ أحسست معه بالأرض تدور من تحتي، وشلّني تيّار الماء البارد الهابط من الصنبور، وحدّثتني نفسي "أيعقل أنّي نسيت مفتاح الخزانة عليها هذا الصباح؟".

هرولت إلى الغرفة، وسبقتني عيناي إلى دفّة الخزانة، وتعلّقت نظراتي على المفتاح الأسود الصغير، يتدلّى منه وجه "ميكي ماوس" الضاحك، يهزأ منّي، مادّاً لسانه بقوّة اتجاهي وكأنه يقول "لقد كشفتكِ وكشفتْ كلّ أوراقك". ودارت بي حيطان الغرفة المملوءة بصور المغنيين والممثلين، وكلّهم ينظرون إليّ بعيون مبحلقة.

توجّهت إلى الباب لأغلقه، وكانت أمي في الجهة المقابلة مرآة معاكسة، مملوءة أنا بالخوف وهي بالقوّة، وجهي مصفرّ ووجهها أحمر، تسير بالاتجاه المقابل بخطوات واسعة، وأخطو كمن يخطو على زجاج. كان لسان القفل على أن وشك الدخول إلى الفم، لكنها دفعت، ودفعت أنا في المقابل، تسللت يدها من الشق المتنازع عليه، وهوت بقبضة يدها على كتفي الذي طالته، وشعرت أن لا بدّ من الاستسلام، إذ لن تنتهي المعركة إلّا بانتهاء الضربات القاضية.

أرسلت الباب إلى الخلف، وصار وجهي مواجهاً لأمي مع اندفاعها للداخل. هوت كفّة يدها على كتفي الآخر، ارتميت على الأرض رغم ضعف الصفعة، وحويت رأسي بين يديّ وطويته إلى صدري قدر استطاعتي، ولم أشعر إلّا والضربات تتتالى، وصرخت من بينها "كمان.. كمان.. أيوة.. كمان".

توقفت أمي عن الضرب فجأة، وتركتني طريحة الأرض، وتوجهت إلى خزانتي وفتحتها بقوّة، حتّى أن الدفّة ارتدّت فأغلقت نفسها من جديد، كأنها عرفت أن ما أفصحتْ عنه ذلك الصباح كان على درجة عالية من السريّة والخطر، حتى أني خبأتها عنها، هي التي تحفظه منذ سنة تقريباً.

أخرجت أمي دفتر المفكّرة ورمته على الأرض بجانبي، ومازلت على حالي مكوّرة قرب السرير، "مزّقيه.. هيا". تجمّدتُ، عصت أطرافي أوامر

الدماغ بأن تتحرّك، ولم أرفع ناظري عن الدفتر الذي بدا كجثّةٍ هامدة، هو الذي كان يضجّ بالحركة طوال النهار داخل الخزانة كأطفال الروضة، ويتسلل خارجه بين يديّ كعميل سريّ، يخفي وجهه خلف أوراقه، كانت فيه روحي التي أمضيت سنة كاملة أريقها عليه. بان الآن خارج إطار الحياة، كُشِفتْ سريّته فمات موتةً بشعةً، أعدمتهُ أمّي بقراءتها له. اليوم عرفت أمي الوجه الآخر لي، أنا ابنتها المطيعة الهادئة، صاحبة الوجه الملائكي، قرأت عن تلك النفس التي في داخلي، تلك المغطاة بقشور اللحم والجلد، نفسها التي تجلس في رأسي مراقبةً من خلال عينيّ، تلك التي يراها الجميع، مؤمناً بصدقها وشفافيتها، تلك المراهقة التي اعتقد الجميع أنها تفجّرت بشكلها الخارجيّ فقط، وبقي الرأس الذي تحمله، نفس الرأس الذي يحمل أحلام الطفولة ووورديّة الحياة. رأت وجهي البشع المشوّه، وعرفت أني منذ زمنٍ ما عدتُ أرى الحياة بالألوان، هي إما أبيض أو أسود.

أيقظتني مجدداً بصوتها وكأنه قادم من بعيد "مزّقيه! ألا تسمعين؟ إذا ما رآه والدك سيذبحك". أجبتها وكأن الكلمات خرجت من نفسي الأخرى التي أهينت أشدّ إهانة "أنا أعرف أن أبي يحترم خصوصيتي، كنت أغلق الخزانة من فضولك". ضربت أمي الدفتر بقدمها وخرجت.

شعرت بأني على أرضٍ بللها وبللني مطر الكلمات الهابطة علينا، أذابتنا ببعضنا فاستحال انفصالي عنها. رفعت رأسي الذي أسكره الصوت المتردد "مزّقيه!"، ومددت يدي إلى الجثّة الحمراء وشددتها إلى جسدي "سأحرقها.. كان الإغريق يفعلون ذلك إكراماً للميت".

آذار 2010

أفكار إيجابية

كنت قد أنهيت للتو الفصل الأول من كتاب "السر" لروندا بايرن، وجذبتني أكثر من غيرها فكرة أن تملأ رأسك بالأفكار الإيجابية قبل الذهاب للنوم بما أنني كنت أهمّ إلى ذلك، فذلك جزء من شحن الذات ليوم قادم.

أقفلت الكتاب ورصفته فوق الكتب الأخرى على طاولة قرب السرير، وحملت نفسي إلى الحمّام بعد أن تخدّرت ساقاي أجرّها جرّاً، إذ تسمرت قرب الهاتف المحمول أربع ساعات تنتظر اتصاله، بقيت خلالها أنقّل ناظريّ بين الكتاب وشاشة الهاتف التي بانت سوداء مزرقّة كلون الفحم.

دفنت جسدي بين الملاءات الباردة بعد أن لبست ملابس النوم، إذ يئست من انتظاره بالملابس العادية، ووصلت السماعات بالهاتف فأضاء مشيراً إلى "مكالمة فائتة"، فضربت جبيني مرتين، الأولى لأنني لم أحمله إلى الحمام معي، والثانية لأنني لم أشأ أن يظن أنني أنام كالدجاج باكراً.

ترددت بين معاودة الاتصال أو الانتظار ليتصل هو مرّة أخرى، لكنني أيقنت أن فكرة النوم الباكر ستترسخ عنده إذا لم أتصل. وبين نعم ولا، تحركت أصابعي على الشاشة سريعاً، وتواطأت الأخيرة إذ باتت أكثر حساسية للّمسات الخفيفة المتوترة.

"تووووت..تووووووت" وعددت في رأسي، ثلاثة.. أربعة.. إذ اعتدت أن أقطع الرنين عند الرنة السابعة، ولا أدري لمَ عليها لا غيرها، لكن جملة "هسيخا موهافيريت لتا هاكولي" العبرية للتسجيل الصوتي أتت كالموت

عند الرنة السادسة. ولم أتردد في محاولة أخرى، لكنني قطعتها بعد الرنة الأولى، إذ شعرت بالخجل من نفسي "عيب يا بنت..الدنيا نص ليل". لكنني كنت مصرّة على فكرة أني لا أنام باكراً، فبعثت برسالة نصيّة تقول "أعتذر، كنت في الحمام عندما اتصلت. بالنسبة للكتاب، لا يهم، تدبرت أمري. عرفت أنك ذاهب إلى بيروت غداً،استمتع! تروح وترجع بالسلامة".

شغلت الموسيقى على الهاتف، وأرخيت رأسي على المخدّة، فإذا بالصوت يخفت، ويرتجّ الهاتف في يدي، وتضيء الشاشة وتنطفئ، وبان اسمه بارزاً في ظلمة الغرفة.

مرحبا، د يتكلم.

اصطنعت آهة متفاجئة ورحّبت به، وكأنني لم أتحجج بحجة واهية صباح اليوم لأطلب رقمه من صديقه وأسجله على هاتفي.

- أعتذر لأنني لم أستطع أن أمرّ لأعطيك الكتاب، قلت لسامر أن يعطيك كتابه غداً، وسأعطيه واحداً بدلاً منه حين أعود، واحتفظي به لنفسك.

- لا يهم، أعرف أنني غلبتك.

- خذي رقم أبو السُمر وكلميه غداً.

- هاته.

سمعته يطقطق على مفاتيح هاتفه، فألصقت هاتفي على صدغي لأتحسس أطراف أنامله عليه، وتمتم هو بالرقم فغفلت وتناولت الدفتر القريب وسجّلت بسرعة، وفي لحظة هوَت كلمة نطقها كأنها سقطت من ارتفاع مئة متر على أذني مباشرة.

أوكيه حبيبتي.

وخلال أقل من أجزاء من الثانية، انقطع نفسانا من على الجانبين،

وشلّ العصب السمعيّ كامل طاقم الدماغ، إذ أراد أن يركّز كامل قوته على التتمة، وتداركت كلماته فداحة الغلطة التي وقع فيها، وكرّت الأخيرة سريعة بعدها لتغطي على فظاعة الموقف، وأنصتُّ لتلعثمه، وتسارع الحديث الذي بات دون معنى أو هدف.

نعم.. إيه.. و.. وبالتأكيد سنبقى على اتصال عبر الإيميل، طيّب؟

أكيد.

تصبحين على خير.. سعيدة.

تلاقي الخير.

ضحكت بعد أن انقطع الاتصال، وفكّرت "يال الموقف المحرج"! لكنني تأكدت من أنني ملأت رأسي بأفكار إيجابية قبل أن أضع رأسي على المخدة وأغطّ في نوم عميق.

14 نيسان 2010

الكلمة

نظرتْ إلى الساعة، وتململتْ في مقعدها، حاولتْ النهوض مرة واثنتين قبل أن ترمق سجا –التي تظاهرت بانشغالها باللابتوب- لتساعدها على النهوض، فيما الأخيرة تقول لي دائماً "تستطيع النهوض وحدها، لِمَ تطلب المساعدة؟". حملت وزن عمرها الكبير، ومشتْ بتثاقل نحو الحمّام، وندهتْ على أمي لتساعدها في أخذ حمامٍ سريع، واستغربنا نشاطها المفاجئ، حيث نُدهلز عليها طويلاً لتتدوّش.

خرجت من الحمام بكامل لباسها، وجلست قبالة التلفاز تماماً، واتشحت بحجابها الأبيض، وطلبت مني عطراً وكحلاً أسود، وفردت ابتسامتها على وجهها المجعّد.

سجا اللعينة تحب أن تنكش راس على جدتي، نظرت إليها وسألتها مداعبة "مين جاي يزورنا يا ستّي؟ خطيبك أبو يعقوب؟" فضحكت جدتي بخجل، ومالت برأسها بثقة اتجاه اليمين، وردّت "بدي أكون مرستأة، مش الليلة كلمة حسن نصر الله؟".

أيار 2010

فهرس

موسى ازحيمان

ملاحظة للقرّاء الكبار
مسح آثار عدوان ٩٤
خارج التغطية
صانع العوزي يركب حماراً
حوار مع تالا
اس إمّات
هيلاهوب
يوميات مبعثرة
رُبّ أُم لم تلدها أُختك
جلجامش في إيلياء
٥ تعريفات
نخب أخير

مي كالوتي

شارع تهامي باشا
خلف حائط وجه جدتي
حتى أنتِ يا بائعة الفجل!
أربعة فناجين قهوة
القبلة الفرنسية
١٢ ساعة على الجسر
O سالب
حاضر ستّي
أم شحادة
صراصير
رأس الفطر
مرآة معاكسة
أفكار ايجابية
الكلمة

"ورشة القدس للكتابة" هي ضمن أشياء قليلة كان بإمكانها أن تمنحني شيئاً من الإيمان أن هذا الكابوس سينتهي وأننا سنعيش لنحكي من بعده. ولعل "طلابي"- وأصدقائي على مدى فصلين قلِقين- من "حنين" أصغرهم سناً، التي تأتي أحياناً بمريول مدرسة شميدت ومعها ابتسامة سرعان ما تتحول إلى ضحكة خجولة.. إلى "موسى" - أكبر "الطلاب" الذي كأنما هو طالع من مسرحية لزياد الرحباني، لعلّهم لا يعرفون مقدار الأمل الذي كنت أراه في كلّ واحد منهم. والآن وأنا أراجع هذا الكتاب الأول لـ موسى ازحيمان ومي كالوتي، الذي كتبا نصوصه أثناء "الورشة"؛ تتبدد شكوكي بأن الرهان على الإنسان والرهان على الموهبة والرهان على مقاومة ثقافية هي رهانات يائسة.

نجوان درويش

9 789950 850538